القائمة القصيرة لجائزة البوكر الدولية 2016

روبرت زيتالر

رواية

حياة كاملة

ترجمتها عن الألمانية
ليندا حسين

الشوبر

روبرت زيتالر

حياة كاملة

رواية

ترجمة: ليندا حسين

الكتاب: حياة كاملة (رواية)
تأليف: روبرت زيتالر
ترجمة: ليندا حسين
عدد الصفحات: 144 صفحة
الترقيم الدولي: 978-9953-852-85-6
الطبعة الأولى: 2017

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
EIN GANZES LEBEN by Robert Seethaler
© Hanser Berlin im Carl Hanser Verlag München 2014

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2017

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) - الدور الأرضي - شقة رقم 2.
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

This title has been supported by Bundeskanzleramt Österreich

This book has been published under the Spotlight on Rights initiative of the Abu Dhabi International Book Fair with the support of KITAB

صدر هذا الكتاب ضمن مبادرة أضواء على حقوق النشر في معرض أبوظبي الدولي للكتاب

في أحد صباحات فبراير من سنة 1933، قام أندرياس إيجر برفع راعي الماعز المحتضر يوهانيس كاليشكر، المعروف لدى سكّانِ الوادي جميعِهم باسمِ هانيس ذي القرون، عن كيس القش الراشح برطوبةٍ شديدة والعابق برائحة حامضة، لحمْله إلى القرية عبر الطريق الجبلية الممتدة ثلاثة كيلومترات والمدفونة معالمها تحت طبقة سميكة من الثلج.

مدفوعاً بإحساس غريب، قام أندرياس بزيارة هانيس ذي القرون في كوخه، حيث وجده متكوّماً على نفسه تحت تلة من جلود الماعز القديمة خلف الموقد الذي كان قد انطفأ منذ وقتٍ طويل. بجسده الذي هزل حتى بانت عظامه، وبشحوب الأشباح، حدّق هانيس ذو القرون في وجه إيجر وسط العتمة، وقد عرف هذا الأخير أن الموت كان هناك، جاثماً له خلف الجبين. حمله على ذراعيه كطفل، وأجلسه بحذر على الحمّالة الخشبية التي كستها الطحالب الجافة، والتي قضى هانيس ذو القرون حياته

يستخدمها لحمل الحطب والماعز المصاب عبر المنحدرات. قام بلف رسن حول جسده، وأوثقه إلى الحامل، وشد العقدة بقوة حتى انطلق صوت طقطقة من الخشب. حين سأله إن كان يتألم، هزّ هانيس ذو القرون رأسه، ولوى فمه على شكل ابتسامة، لكن إيجر عرف أنه يكذب.

الأسابيع الأولى من السنة كانت دافئة على غير العادة. فقد ذاب الثلج في الوديان، وبات يُسمع دومًا في القرية صوت التنقيط وخرير الماء بعد ذوبانه. لكن منذ عدة أيام استعاد الطقس برودته الجليديّة، وتساقط الثلج من السماء بغزارة وبلا توقف، لدرجةٍ بدا معها وكأنه، بنعومته التي غطت كل شيء، سيبتلع الطبيعة، ويخنق كل حياة وكل حِسّ. قطع إيجر بضع مئات من الأمتار من دون أن يتحدث إلى الرجل الذي كان يرتجف فوق ظهره، فقد كان مشغولاً بما فيه الكفاية بالانتباه إلى الطريق الذي كان ينحدر من أعلى الجبل في تعرّجات قاسية، والذي بالكاد يتمكّن من تمييزه وسط دوامات الثلج العاصفة. بين حين وآخر كان يحسّ بحركة هانيس ذي القرون. «لا تمتْ وأنت على ظهري الآن». صدح بصوتٍ عالٍ، محدّثاً نفسه من دون أن يتوقع جواباً. إلا أنه وبعد أن كان قد مشى نصف ساعة من دون أن يصل مسامعه سوى صوت لهاثه، أتاه الرد من الخلف: «لن يكون الموت أسوأ ما قد يحدث». «لكن ليس على ظهري!»، قال إيجر، وتوقف ليسوّي الأحزمة الجلدية فوق كتفيه. أنصت لوهلة إلى الثلج

الذي يتساقط دونما صوت. كان السكون مطلقاً. هذا صمْتُ الجبال الذي يعرفه جيداً، والذي لا يزال قادراً برغم ذلك على ملء قلبه بالخوف. «ليس على ظهري» كرر العبارة متابعاً سيره. بعد كل منعطف بدا أنّ الثلج يتساقط بكثافة أكبر، بلا توقّف. ناعماً، بلا ضجيج. خلفه كان تحرُّكُ هانيس ذي القرون يقلُّ شيئاً فشيئاً، حتى توقف في النهاية عن الحركة تماماً، وتوقع إيجر أنّ الأسوأ قد حدث.

«هل متّ الآن؟»، سأله. «لا، أيها الشيطان الأعرج!» أتاه الجواب بوضوحه المفاجئ.

«ما أعنيه، عليك أن تتحمل بعدُ حتى نصل إلى القرية. بعدها تستطيع أن تفعل ما تشاء».

«وماذا إذا كنت لا أريد أن أتحمّل هذا حتى القرية؟».

«عليك ذلك!»، قال إيجر. وقد رأى الآن أنهما قد تحدثا كفاية. ثم تابعا المسير بصمت نصف ساعة. على علوٍّ ما يقارب الثلاثمائة متر فوق القرية، عند حرف غايَركانته، حيث اختبأت أولى شجرات الصنوبر الجبلية تحت الثلج مثل أقزام حدباء، انحرف إيجر عن طريقه، تعثّر، وقع على مؤخّرته وانزلق عشرين متراً هابطاً في المنحدر، قبل أن توقفه صخرة بطول رجل.

عند جانب الصخرة المحمي من الرياح، كانت الريح ساكنة، وبدا الثلج هنا أبطأ، وأخفض صوتاً. جلس إيجر، وأسند ظهره قليلاً إلى الحمّالة الخشبية. أحس بألم حاد في ركبته اليسرى،

لكنه كان محتمَلاً، والساق بقيت سليمة. لدقائق لم يأتِ هانيس ذو القرون بأية حركة، ثم بدأ يسعل فجأة، وفي النهاية بدأ الكلام بصوت أجش، وخفيضٍ لدرجةِ أنه بالكاد كان مفهوماً: «أين تريد أن ترقد، أندرياس إيجر؟».

«ماذا؟».

«في أي أرض تريد أن تُدفَن؟».

«لا أعلم بعد»، قال إيجر. لم يكن قد فكّر في هذا السؤال من قبل. وفي الحقيقة، كان يرى أن مثل هذه الأمور لا تستحق أيضاً إضاعة الوقت ولا التفكير فيها. «الأرض هي الأرض، ولا فرق أين يرقد المرء».

«لا فرق ربما، كما لافرق بشأن أيّ شيء في نهاية المطاف»، سمع هانيس ذا القرون يهمس. «لكن سيكون هناك بردٌ ينخر العظام والروح».

«الروح أيضاً؟»، سأل إيجر وقد أحسّ فجأة بقشعريرة تمتد على طول عموده الفقري.

«خاصة الروح!»، أجاب هانيس ذو القرون. وكان قد مدّ رأسه الآن، بقدر ما استطاع، فوق حافّة الحمّالة الخشبية وراح يحدّق بالجدار الذي صنعه الضباب والثلج.

«الروح والعظام والنفس وكل ما قضى المرء عمره متعلقاً أو مؤمناً به. سينخر البرد كل شيء. هذا ما كُتب، لأن هذا ما سمعت

به. يقول الناس إنّ الموت يلد حياة جديدة. لكن الناس أغبى من أغبى ماعز». أنا أقول: لا يلد الموت شيئاً! الموت هو السيدة الباردة».

«الـ... ماذا؟».

«السيدة الباردة»، كرّر هانيس ذو القرون. «تمشي في الجبل، وتتسلل عبر الوادي. تأتي عندما تريد، وتأخذ ما تحتاج. لا وجه لها ولا صوت. المرأة الباردة تأتي وتأخذ وتذهب. هذا كل شيء. أثناء عبورها، تمسك بك وتأخذك معها وتضعك في حفرة ما. وفي آخر قطعة من السماء التي تراها قبل أن يهيلوا التراب عليك إلى الأبد، تظهر مرة أخرى، وتنفخ عليك. وكل ما يبقى لك حينها، هو الظلام. والبرد».

رفع إيجر نظره إلى السماء المثلِجة، وللحظة انتابه الخوف من أن يظهر شيء هناك، وينفخ في وجهه. تمتم من بين أسنانه المضغوطة. «يا يسوع، هذا سيء».

«نعم، هذا سيء»، قال هانيس ذو القرون، وكان صوته مبحوحاً من الخوف. لم يعد الرجلان يأتيان بأية حركة. طغى على الصمت الآن صوت الغناء الخافت للريح، التي هبت فوق الحافة الصخرية، نافثةً طيّات رقيقة من الثلج أمامها. فجأة أحس إيجر بحركة، وخلال الثواني التالية سقط نحو الخلف ممدداً على ظهره في الثلج. بطريقة ما كان هانيس ذو القرون قد استطاع حل العقد والإفلات من الحمالة الخشبية بسرعة البرق.

كان واقفاً الآن هناك، هزيلاً تحت أسماله، متمايلاً قليلاً في مهبّ الريح. اقشعر إيجر مجدداً، وقال له: «ستعود الآن إلى الداخل فوراً، وإلا فإنك ستصاب بمكروه».

بقي هانيس ذو القرون واقفاً برأسه الممدود نحو الأمام. بدا لوهلة وكأنه يصغي إلى كلمات إيجر التي كان قد ابتلعها الثلج. ثم استدار صاعداً الجبل بقفزات هائلة. استجمع إيجر قواه ووقف، تزحلق، ووقع على ظهره شاتماً. رفع نفسه بكلتا يديه عن الأرض ووقف على قدميه مجدداً. «عد إلى هنا!»، صاح منادياً راعي الماعز الذي كان يقفز هارباً بسرعة مدهشة. لكن هانيس ذا القرون لم يعد يسمع. خلع إيجر الأحزمة عن كتفيه. ترك الحمالة الخشبية تسقط، وركض خلفه، لكنه توقف لاهثاً بعد أمتار قليلة فقط. كان المنحدر في ذلك الموضع شديد القسوة، ومع كل خطوة كان يغرق في الثلج حتى خصره. أمامه كانت هيئة هانيس ذي القرون الهزيلة تتلاشى بسرعة حتى اختفت نهائياً في البياض الكثيف للهطولات الثلجية الغزيرة. وضع إيجر يديه أمام فمه على شكل قمع، وصرخ بأعلى صوته: «توقف، أيها الكلب الغبي! لم يسبق لأحد أن هرب من الموت!» لكن دون جدوى، فقد اختفى هانيس ذو القرون.

مشى أندرياس إيجر مئات الأمتار الأخيرة نازلاً باتجاه القرية ليبثَّ الدفءَ في روحه، الغارقة في الذعر، بصحنٍ من الفطائر

المُحلّاة، الدّسمة، وكأسٍ من الكراوترر[1] المنزلي في نزل «الشمواه الذهبي». وجد لنفسه مكاناً بجانب الموقد الحجري مباشرة، وضع يديه على الطاولة، وأحس مجدداً بالدم الدافئ يجري ببطء في أصابعه. كان باب الموقد الصغير مفتوحاً، وبداخله كانت النار تطقطق. لوهلة قصيرة خيّل إليه أنه يرى وسط اللهب وجه راعي الماعز محدّقاً به بلا حراك. أغلق فتحة الموقد بسرعة، وتجرع شرابه مغلقاً عينيه بإحكام. عندما فتح عينيه ثانية كانت تقف أمامه امرأة شابة. كانت تقف هناك فقط، يداها على خصرها، محدقة به. كان شعرها قصيراً، أشقر فاتحاً، وقد تورّدت بشرتها واتّقدت في دفء الموقد، هذا المشهد جعل إيجر يتذكر صغار الخنازير حديثة الولادة، والتي كان يرفعها عن القش عندما كان فتًى ليدفن وجهه في بطونها الطرية التي تفوح منها روائح التراب والحليب وروث الخنازير. نظر نحو الأسفل إلى يديه. بدتا له فجأة غريبتين في الطريقة التي تسترخيان بها هناك، بدتا ثقيلتين، وعديمتي الفائدة، وغبيتين.

«واحداً آخر؟»، سألته المرأة الشابة، وإيجر هز رأسه موافقاً. أحضرتْ كأساً جديدةً، وعندما انحنت إلى الأمام لتضعها على الطاولة، لمست ذراعَهُ بطيّةِ قميصِها. ورغم أن لمْسَتها بالكاد يُحَسُّ بها، إلا أنها خلّفت وجعاً خفيفاً، بدا أنه يحفر عميقاً في لحمه مع كل ثانية تمرّ. نظر إليها، وابتسمت.

---

(1) مشروب روحي منكّه بالأعشاب أو البهار

ظل أندرياس إيجر طوال حياته يعاود التفكير بهذه النظرة، بهذه الابتسامة القصيرة بعد ظهر ذلك اليوم، أمام موقد النزل الذي كان يطقطق بصوت خافت.

لاحقاً عندما خرج إلى الهواء الطلق، كان الثلج قد توقف. كان الجو بارداً والهواء نظيفاً، وبقايا الضباب تزحف إلى أعالي الجبال التي كانت قممُها قد بدأت تتوهّج في ضوء الشمس. ترك إيجر القرية وراءه، واتجه نحو بيته خائضاً في الثلج العميق. كانت مجموعةٌ من الأولاد تلعب عند الجدول الجبلي أسفلَ الجسر الخشبي الصغير ببضعة أمتار. كانوا قد ألقوا حقائبهم المدرسية في الثلج، وبدأوا بالتسلّق من مكان إلى مكان في مجرى الجدول. بعضُهم كان يتزحلق على مؤخرته فوق المجرى المائي المتجمّد، بينما أخذ بعضُهم الآخرُ يزحف فوق الجليد على أربعٍ ليصغي إلى القرقرة الخفيضة تحتَه. عندما اكتشفوا وجودَ إيجر تجمهروا وراحوا يصيحون: «أعرج! أعرج!» دوّى صوتُهم في الهواء الزجاجي واضحاً وصافياً كصرخات النسور الفتية التي كانت تحوم فوق الوادي على علوّ مرتفع، والتي كانت تلتقط ظباءَ الشمواه من الصدوع التي سقطتْ بها، والعنزاتِ من المراعي. «أعرج! أعرج!» أنزل إيجر الحمالة الخشبية، كسر قطعة من الجليد بحجم قبضة اليد من ضفة الجدول المائلة، رفعها بيده عالياً وقذفها باتجاههم. كانت تسديدته أعلى كثيراً من الهدف، فحلّقتْ قطعةُ الثلج على ارتفاع فوق رؤوس الأطفال.

في أعلى نقطةٍ من خطِّ طيرانِها بدَتْ للحظةٍ وكأنها ستبقى معلّقةً هناك في الأعلى، كجرمٍ سماويٍّ صغير يلمع في ضوء الشمس. ثم هوت نازلة واختفت بصمت في ظلال أشجار التنوب الغارقة في الثلج.

***

بعد ثلاثة أشهر، كان إيجر يجلس على جذع شجرة في تلك البقعة تماماً، مراقباً سحابةَ غبارٍ مصفرّةٍ، تلقي بظلالها على مدخل الوادي، انبثقَتْ عنها بعد قليلٍ فرقُ البناء التابعةِ لشركة بيترمان وأبناؤه والمكوَّنة من مئتين وستين عاملاً، واثني عشر ميكانيكياً، وأربعة مهندسين، وسبعة طباخين طليان، وعددٍ قليلٍ من موظفين مساعدين بلا اختصاصات محدَّدة، وأخذتْ تقتربُ من القرية. من بعيد بدت المجموعة كقطيع ضخم من الماشية، لم يكن ممكناً للمرء إلا بتضييق عينيه قليلاً أن يميّز هنا وهناك يداً ممدودة نحو الأعلى أو معوَلاً معلَّقاً على الكتف. لم تكن هذه المجموعةُ سوى طليعة قافلةٍ من عرباتٍ تجرّها الخيول وشاحناتٍ محمّلةٍ بعدّةٍ ثقيلةٍ، وآلاتٍ، وعوارض فولاذيةٍ، وإسمنتٍ، وموادّ بناءٍ أخرى، كانت تتحرك بسرعةِ المشي الاعتياديِّ فوق الطريقِ الترابية. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتردد فيها صدى الهدير العميق لمحركات «الديزل» في الوادي. وقف السكان المحليون صامتين على جانب الطريق إلى أن قامَ المزارعُ العجوز جوزيف

ماليتزر فجأة بانتزاعِ قبعتِه المصنوعةِ من اللباد عن رأسه، ورماها عالياً في الهواء مطلقاً صيحةَ فرح. هنا بدأ الآخرون أيضاً يطلقون صيحات الفرح، ويهتفون بصوت عالٍ، ويصرخون. منذ أسابيع والمرءُ يتوقّعُ بدءَ الربيعِ ووصولَ فريقِ البناء معه. كان سيتمُّ إنشاءُ تلفريك، تلفريك معلّقٍ، يعملُ بالتيار الكهربائي المستمر، في عرباته الخشبية ذاتِ اللونِ الأزرق الفاتح، سيطوفُ الناسُ صاعدين الجبل، وسيستمتعون بإطلالة بانورامية على كامل الوادي. كان مشروعاً ضخماً، حيث ستُشقُّ السماءُ بكابلاتٍ طولُها يقاربُ الألفي متر، سماكتُها خمسةٌ وعشرون ميلليمتراً، وتتشابك فيما بينها مثل الأفاعي عند التزاوج. كان هناك فَرْقٌ في الارتفاعِ بمقدارِ ألفٍ وثلاثمائةِ متر ينبغي التغلبُ عليه، وصدوعٌ ينبغي تجسيرها، ونتوءاتٌ صخريةٌ يجب تفجيرها. مع التلفريك كانت الكهرباء ستأتي أيضاً إلى الوادي. عبر كابلات تئز. كان التيارُ الكهربائي سيتدفق، والشوارعُ والحجراتُ والإسطبلاتُ ستتوهج بالضوء الدافئ حتى في الليل. كان الناسُ يفكرون في كل هذا، وفي أشياء أخرى كثيرةٍ، عندما راحوا يرمون قبّعاتِهم، ويطلقون صيحاتِ فرحِهم على الملأ. ودَّ إيجر لو يهتف معهم، إلا أنه لسبب ما بقي جالساً على جذع شجرته. كان يشعر بالغَمّ من دون أن يعرف لماذا. ربما كان لهذا علاقةٌ بطقطقةِ المحركاتِ التي ملأت الوادي فجأة، والتي لم يكن للمرء أن يعرف متى ستختفي ثانية. أو إذا ما كانت أساساً ستختفي ثانية. بقي إيجر

جالساً هكذا لفترة، لكنه لم يستطع التحمل أكثر من ذلك. فقفز من مكانه، ونزل راكضاً، وانضم إلى الآخرين على جانب الطريق، حيث أخذ يصرخُ، ويهتفُ فرَحاً، بأعلى ما استطاع.

عندما كان طفلاً، لم يحدثْ أن صاح أندرياس إيجر أبداً أو هتف فرحاً. وحتى دخوله المدرسةَ لم يكن قد تكلم ولو لمرة واحدة بشكل حقيقي. بجهدٍ جهيدٍ استطاع أن يجمع لنفسه حفنةً من الكلمات، كان في لحظات نادرة يردّدها مرتّباً إياها كيفما اتفق. لقد كان الحديث يعني لفتَ الانتباه، وكان هذا بدوره لا ينذر بالخير. في صيف عام 1902، وكان مايزال صبياً صغيراً، بعد رفعه عن عربة الحصان التي أقلّته من مدينةٍ بعيدةٍ خلفَ الجبال، وقف صامتاً فقط، وبعينين واسعتين حدّقَ مذهولاً إلى قممِ الجبالِ المشعّةِ بالبياض. ربما كان في الرابعة من عمره في ذلك الحين، أو أصغرَ بقليلٍ ربما، أو أكبر. لم يكن أحدٌ يعلم ذلك بالضبط، ولم يكن أحد يهتم بذلك. وهذا كان آخرَ همِّ مالكِ الأراضي هوبرت كرانتزشتوكر، الذي تولى على مضض استلام إيجر الصغير، ودسّ لحوذي الأحصنة بقشيشاً زهيداً كان عبارة عن جروشَينِ اثنين، وحافّة خبز يابسة. كان الصبي هو الطفل الوحيد لإحدى أخوات زوجته، والتي كانتْ قد عاشتْ حياةً طائشة، عاقبها الله عليها منذ فترةٍ غيرِ بعيدةٍ بالسل، وأخذها إلى رحمته. على أية حال، كانت هناك محفظة جلد تحوي بعض الأوراق النقدية، معلقةً إلى رقبة الصبي. كان ذلك بالنسبة إلى

كرانتزشتوكر مبرّراً كافياً كي لا يرسل الصبيّ حالاً إلى الجحيم أو يتركه للقسيس أمام باب الكنيسة، الأمران اللذان كانا سواءً تقريباً بالنسبة له. على أية حال كان إيجر يقف هناك الآن محدّقاً بدهشةٍ إلى الجبال. كانت تلك هي الصورةُ الوحيدةُ التي بقيت له من طفولتِه المبكرة، وقد حملها معه طوال حياته. عن الفترة التي سبقتْ ذلك لم تكن هناك أيةُ ذكريات، والسنواتُ التاليةُ أيضاً، سنواته الأولى في مزرعة كرانتزشتوكر، تبخَّرتْ هي الأخرى في النهاية في ضباب الماضي.

المشهد التالي الذي يحتفظ به في ذاكرته، كان يرى نفسَه فيه صبياً في الثامنة من عمره تقريباً، معلقاً على عارضةِ نيرِ الثور، عارياً ونحيلاً، تتأرجح ساقاه ورأسه قريبا من الأرض التي تفوح منها رائحةُ بَولِ الأحصنة، بينما تبرز مؤخرتُه الصغيرة البيضاء عالياً في هواء الشتاء، متلقّيةً ضرباتِ كرانتزشتوكر بقضيب البندق. كالعادة، كان المزارع قد نقعَ القضيب في الماء كي يصبحَ ليناً. الآن صار يصدر صفيراً قصيراً مستعراً في الهواء، قبل أن ينزلَ مع تنهيدةٍ على ردفِه. لم يكنْ إيجر يصرخ أبداً، الأمر الذي لم يكن يدفع المزارع إلّا إلى ضربه بقسوة أكبر.الإنسان خُلِقَ وجُعلَ صلباً بيد الله كي يُخضِع له الأرضَ وكلَّ ما يسرحُ فوقَها. الإنسان ينفّذ إرادةَ الله، ويقولُ كلمةَ الله. الإنسانُ يخلق الحياةَ بقوَّة صلبه، وينهي الحياة بقوة ذراعه. الإنسان هو اللحم، وهو الأرض، وهو صاحب مزرعة، واسمه هوبرت كرانتزشتوكر.

عندما يعجبه الأمر يحرث حقله، أو يمسك بخنزيرة ناضجة ويحملها فوق الكتفين، أو يجلب طفلاً إلى العالم، أو يعلّقُ آخرَ على عارضة نير الثور، فهو الرجل، القول والفعل.

«غفرانك يا الله»، قال كرانتزشتوكر تاركاً العود يصفر. «غفرانك يا إلهي».

كان هناك مايكفي من الأسباب لهذا العقاب التأديبي: حليب مدلوق، خبز متعفّن، بقرة ضائعة، أو صلاة غروب متلعثمة. ذات مرة حدث أن كان العود ثخيناً جداً أثناء تقطيع صاحب المزرعة له، أو أنه نسي أن ينقعه، أو أنه ضرب بغضب أكثر من المعتاد، لم يكن بالإمكان تحديد ذلك بالضبط، على أية حال، كان يضرب، ثم علا صوت طقطقة في مكان ما من الجسد الصغير، وتوقف الصبي عن الحركة. «غفرانك يا إلهي»، قال كرانتزشتوكر مسدلاً ذراعه بذهول.

أُحضر إيجر الصغير إلى المنزل، ومُدّدَ فوق القش، وبدلوٍ من المياه، وكوبٍ من الحليب الساخن، أعادتْه زوجةُ صاحبِ المزرعة إلى الحياة. شيءٌ ما في الساق اليمنى كان قد اختلّ مكانُه، ولكنْ لأن الفحص في المستشفى كان سيكلّف الكثير، أُحضِرَ من الجوار مجبّرُ العظام ألويس كلامرر، وقد كان رجلاً لطيفاً بيدين متوردتين قليلاً وصغيرتين بشكل غير عادي، لكنّ قوتَهما ومهارتَهما كانتا أسطوريتين حتى بالنسبة للحطابين ومساعدي الحدادين. ذات مرةٍ، قبل سنواتٍ، تم إحضاره إلى مزرعة مالك

الأراضي هيرتس، إذ كان ابن صاحب المزرعة، الذي كبرَ وأصبحَ غولاً كاسراً، قد سقطَ عن سطح الحظيرة في حالةِ سكرٍ شديد، وكان منذ ساعاتٍ يتمرّغ من الألم في روث الدجاج، ويطلق أصواتاً غير مفهومة، وبمذراةٍ كان يدفع عنه بنجاحٍ كلَّ قبضةٍ تمتدّ نحوه. اقترب ألويس كلامرر منه بابتسامة لامباليةٍ متجنّباً بمهارة طعنات الشوكة، ودفع باتجاه الغلام إصبعين دخلتا بنجاح في فتحتي الأنف، كابحاً بحركة بسيطة جماحه، كي يعيدَ تسويةَ رأسِه العنيدِ أولاً، وبعد ذلك عظامِه المخلوعة.

وعظمُ الفخذِ المكسورِ عند إيجر الصغير قام أيضاً مجبرُ العظام ألويس كلامرر برصّه إلى بعضه. بعد ذلك جبّر الساق ببعض الشرائح الخشبية الرقيقة، ودهنها بمرهم عشبي، وقام بلفها بضمادة سميكة. كان على إيجر أن يمضي الأسابيع الستة التالية فوق كيس من القش في العلية، وأن يقضي حاجته مستلقياً فوق وعاء القشدة القديم.

حتى بعد مرور سنوات عديدة، حين كان قد أصبح منذ زمن طويل رجلاً ناضجاً وقوياً بما يكفي لنزول الجبل حاملاً راعي الماعز المحتضر فوق ظهره، كان أندرياس إيجر يعود بذاكرته إلى الليالي التي قضاها في العلّية التي تنبعث منها روائح الأعشاب وبراز الفئران وإفرازاته هو. من الأرضية الخشبية كان يحسّ بالدفء وهو يتصاعد من الحجرة التي تقع تحته. كان يسمع أبناء المزارع وهم يتأوّهون في نومهم بصوت خفيض، وشخيرَ كرانتزشتوكر

المدوّي، والأصوات المبهمة لزوجة صاحب المزرعة. من الحظيرة كانت تصلُ إليه أصواتُ الحيوانات، هسيسُها، تنفسُها، مضغها، وشخيرها. أحياناً، عندما لم يكن باستطاعته النوم في الليالي النيّرة، وعندما يلوح القمر من كوة السقف الصغيرة، كان يحاول أن يستقيم في جلسته قدرَ ما يستطيع، كي يقترب منه. كان ضوء القمر لطيفاً وناعماً، وعندما كان يراقب أصابع قدميه، كانت تبدو وكأنّها قطع مدوّرة من الجبنة.

أخيراً، عندما انتهت الأسابيع الستة، ونودي مجبّرُ العظام ثانيةً كي يفكّ الضمادة، كانت الساقُ نحيلةً كعظام الدجاج. إضافة لذلك كانت تبرز من الورك بشكل مائل، ويبدو في المحصّلة أنها غدت عوجاء قليلاً ومنحرفة عن موضعها.

«سيستقيم وضعها مع النمو، مثل كل شيء في الحياة»، قال كلامرر، بينما كان يغسل يديه في وعاء مليء بحليب طازج.

عضَّ إيجر الصغير على أوجاعه، وقام عن السرير، وغادر البيت متحاملاً على نفسه، ثم مبتعداً قليلاً، إلى حقل الدجاج الكبير، الذي كانت قد أزهرت فيه زهور الربيع والدرونق[1]. خلع عنه قميص نومه، وبذراعين ممدودتين ترك نفسه يسقط إلى الوراء فوق العشب. أضاءت الشمس وجهه، وللمرة الأولى منذ ما أمكن تذكّره، فكّرَ بأمه التي لم يبق لديه منها أية صورة منذ زمن

---

(1) عشبة بأزهار صفراء.

بعيد. كيف كانت ياترى؟ كيف تمددت عند موتها؟ صغيرة جداً ونحيلة وبيضاء؟ ببقعةِ شمسٍ وحيدة مرتجفةٍ على جبينها؟

استردّ إيجر قواه، إلا أنّ ساقه بقيت عوجاء، واضطر منذ ذلك الحين أن يعرج طوال حياته. كان يبدو وكأنّ ساقَهُ اليمنى تحتاج دائماً دقيقةً إضافيّةً عما يحتاجه باقي جسده، كما لو أنّ عليها قبلَ كلِّ خطوةٍ أن تفكّر، إذا ما كانت هذه الخطوة جديرةً حقاً بجهد مثل هذا.

كانت ذكرياتُ أندرياس إيجر عن سنوات طفولته بعد هذه الحادثةِ مهلهلةً ومتقطعة. ذات مرة شاهدَ جبلاً يبدأ بالتحرك. بدا أن هزّة تسري في جانب الجبل الواقع في جهة الظل، ومع أنّةٍ عميقة بدأ المنحدر بأكمله ينزلق. اقتلعت كتلُ الأرضِ معها كنيسةَ الغابة وبعضَ مستودعاتِ التبن، ودفنَتْ تحتها الأسوارَ الحجرية القديمة المتزعزعة لمزرعة كيرنشتاينر الخالية أصلاً منذ سنوات. عجْلٌ كان قد تمّ عزلُهُ عن القطيع بسبب ساقه الخلفية المتقرحة، ارتفع عالياً في الهواء مع شجرة الكرز التي كان مربوطاً إليها، حيث حملق بعيداً عبر الوادي للحظةٍ، قبل أن يُغرقه الركامُ الحجري ويبتلعه. تذكر إيجر كيف وقف الناسُ فاغرين أفواههم أمام منازلهم وهم يشاهدون الكارثة على الجانب الآخر من الوادي. أمسك الأطفال بأيدي بعضهم، والرجال صمتوا، وبكت النساء، وفي كل مكان كان يُسمع صوت همهمة العجائز وهم يتلون صلاتهم الربانية. بعدَ بضعةِ أيام، عُثرَ على العجل أسفل المكان ببضع مئات من الأمتار، حيث كان مايزال مربوطاً

إلى شجرة الكرز، ممدّداً عند منعطف الجدول، ببطنٍ منتفخة، وساقين متصلبتين موجَّهتَيْن نحو السماء، وقد أحاطت به المياه.

تقاسم إيجر مع أولاد صاحبِ المزرعة السريرَ الكبير في حجرة النوم، إلا أن ذلك لم يكن يعني أنه كان واحداً منهم. إذ إنه بقي طوال الوقت الذي قضاه في المزرعة الشخصَ الدخيل، المتسامَحُ في وجوده، ليس أكثر، الابن غير الشرعي لأخت الزوجة التي أُنزِل بها العقاب الإلهي، الذي في حصوله على رحمة صاحب المزرعة لا يدين لأحدٍ، ولا لشيءٍ، إلا لما كان يحتويه كيسٌ جلديٌ يُعلّق على الرقبة. أساساً لم يُنظر له كطفل. كان عبارةً عن مخلوقٍ عليه أن يعمل، وأن يصلّي، وأن يبرز مؤخرته في مواجهة قضيب البندق. وحدها والدة زوجة صاحب المزرعة، الجدة العجوز، كانت تُبقي له، بين وقت وآخر، نظرةً دافئة أو كلمةً لطيفة. أحياناً كانت تضع يدها على رأسه وتهمهم «أستودعك الله». عندما علم إيجر أثناء حصاد الدريس بموتها المفاجئ – كانت قد فقدت وعيها أثناء خبز الخبز، فمالت نحو الأمام، واختنقتْ ووجهُها في الطحين – ترك المحشّة تسقط، ومن دون أن ينطق بكلمةٍ صعد الجبل حتى وصل إلى حرف أدلركانته، حيث بحث لنفسه عن مكان ظليل ليبكي فيه.

وُضِعَت الجدة لمدة ثلاثة أيام في نعشٍ في الحجرة الصغيرة بين البيت والحظائر. كان هناك ظلام دامس في الغرفة. تمّ تعتيمُ النوافذِ، وأُسدلتْ أقمشةٌ سوداء على الجدران. كانت يدا

الجدة قد طويتا فوق مسبحة خشبية، وأضاءت وجهها شمعتان مرتعشتان. انتشرت رائحة الجثة بسرعةٍ في جميع أنحاء البيت، ففي الخارج كان الصيف قد اشتدّ حرُّه، وتسربت الحرارة عبر جميع الشقوق إلى حجرة الموت. أخيراً عندما أتت عربة نقل الموتى يجرها حصانان ضخمان من الهافلينجر، تجمع الفلاحون حول الجثة للمرّة الأخيرة لوداعها. قام كرانتزشتوكر برشها بالماء المقدس، وتنحنح ببضع كلمات: «لقد رحلت الجدة الآن»، قال. «إلى أين؟ لا يمكن لأحد أن يعرف، لكن ذلك سيحدث كما قُدّرَ له. القديمُ، حيثما يفنى، يفسح مكاناً للجديد. هكذا هو الأمر، وسيكون كذلك دائماً، آمين!» ثم رُفعت إلى العربة، وأخذ موكب الجنازة، الذي اشتركت به القرية كلها كالمعتاد، يتحرك ببطء. عندما مرّوا بمحل الحدادة، انفتح الباب الملوَّث بالهباب فجأة، وانطلق كلبُ الحدّاد إلى الخارج. كان جلدُه حالكَ السواد، وبين ساقيه لمع عضوه التناسلي منتفخاً، فاقع الاحمرار. هاجم العربة بنباح مبحوح. ضربه الحوذيّ على ظهره بالسوط، لكنّ الكلب بدا وكأنه لا يشعر بالألم. قفز على أحد الحصانين وعضه في ساقه الخلفية. شبّ الحصان ورفس. حدوته الهائلة ضربت رأس الكلب، وسُمع صوت تحطم. عوى الكلب من الألم وسقط مثل شوالٍ على الأرض. في المقدمة ترنّح الحصان المصاب على أحد جنبيه، موشكاً أن يسحبَ العربة إلى قناة تصريف المياه الذائبة. تسنّى للحوذي، الذي قفز

من مقعده وأمسك بزمام الحيوانين، أن يُبقي العربةَ على الطريق، إلا أن النعش في الخلف كان قد تزحلق وتمدّد بشكل معترض. الغطاء، الذي تمّ قفله على نحوٍ مؤقت فقط من أجل عملية النقل، والذي كان من المفروض أن يُحكم إغلاقه بالمسامير بشكل نهائي عند القبر، تحطّم قفله ولاحَ ساعدُ المتوفاة عبر الفتحة. في عتمةِ غرفةِ الموت كانت يدها بيضاء كالثلج، لكنها بدت هنا، في الضوء المشرق لمنتصف النهار، شاحبةً كبتلاتِ أزهار البنفسج الجبليّ الصغيرة، التي تتفتّح على الضفة الظليلة للجدول، والتي ما إن تتعرّض للشمس حتى تذبل. شبَّ الحصان للمرة الأخيرة، قبل أن يثبت واقفاً بخاصرتَيْه المرتجفتين. شاهد إيجر يد الجدة المتوفاة وهي تتدلّى من النعش، وبدت للحظة وكأنها تريد أن تلوّح له مودّعة، بآخر كلمات: «أستودعك الله»، له وحده حتماً. أُغلق الغطاء، وأُعيد النعش إلى وضعه، وأمكن لموكب الجنازة أن يكمل طريقه. بقي الكلب في الشارع حيث هو، مستلقياً على أحد جنبيه، وهو يتشنّج، ويدور حول نفسه، عاضاً ما حوله على نحو أعمى. بقي صوت إطباق فكَّيْه يُسمع لفترة غير قصيرة، قبل أن يقتله الحدّاد ضارباً إياه بنصلِ منجلٍ حديدي طويل.

في سنة 1910 تم تشييد مدرسةٍ في القرية، حيث كان إيجر الصغير الآن كلّ صباح بعد عمله في الحظيرة يجلس مع الأولاد الآخرين في غرفة الصف التي تفوح منها رائحة قطران مستخدَم حديثاً، ليتعلموا القراءة والكتابة والحساب. كان يتعلم ببطء

وكما لو كان ذلك ضد إرادة داخليةٍ خفيةٍ رافضةٍ لذلك، لكنْ بمرور الوقت، بدأ يظهر من فوضى النقاط والخطوط على لوح المدرسة، شيءٌ من المعنى، حتى بلغ الأمر به أخيراً إلى أن يقرأ حتى الكتب التي لا تحتوي على صور، الأمر الذي أيقظ لديه بعض التصورات، ولكنّه أيقظ أيضاً مخاوفَ، بشأن العوالم الواقعة على الجانب الآخر من الوادي.

بعد موت الولَدَين الأصغرين لكرانتزشتوكر، اللذين خطفتهما الديفتريا في ليلة شتائية طويلة، ازداد العمل في المزرعة صعوبةً، فقد صار موزَّعاً على أذرع أقل. لكن من جهة أخرى صار لإيجر الآن مساحة أكبر في السرير، ولم يعُد عليه أن يتعارك مع من تبقّى من إخوته غير الأشقاء من أجل كل كسرة خبز. على أية حال، لم يعد يحدث، إلا ما ندر، أن يتعارك جسدياً مع الأولاد الآخرين، لأن إيجر ببساطة شديدة كان قد أصبح قوياً جداً. لقد جرت الأمور وكأنّ الطبيعة منذ ذلك الشيء الذي حصل مع الساق المهشّمة، كانت تحاول أن تعوّضه شيئاً.

في الثالثة عشر من عمره كانت له عضلات شاب، وفي الرابعة عشر طرح للمرة الأولى شوالاً يزن ستين كيلو غراماً عبر الكوَّة إلى غرفة الحبوب. كان قوياً، لكنْ بطيئاً؛ يفكر ببطء، يتكلم ببطء، ويمشي ببطء، لكنّ كلَّ فكرة، وكلّ كلمةٍ، وكلّ خطوة، كانت تترك خلفها أثراً، لا بل وتترك هذا الأثر، حسب رأي إيجر، تماماً حيث يجب أن يكون.

ذات يوم وبعد عيد ميلاد إيجر الثامن عشر (لم يكن هناك حول ولادته أية معلومات دقيقة يمكن الحصول عليها، لذا حدَّد العمدة ببساطة تاريخاً ما من الصيف، وقد كان تحديداً يوم الخامس عشر من آب عام 1898، ليكون عيد ميلاده، وحرر وثيقة بناء على ذلك) حدثَ أثناء وجبة العشاء أن انزلق من يديه الوعاء الفخاري المملوء بحساء الحليب، وتحطّم مصدِراً صوتاً مكتوماً. وانسكب الحساء، الذي فُتّتَ الخبزُ للتو فيه، فوق الأرض الخشبية.

كرانتزشتوكر، الذي كان قد شبك راحتيه لصلاة المائدة، وقف ببطء وقال: «أحضر قضيب البندق، وضعه في الماء! سنتقابل بعد نصف ساعة!».

تناول إيجر القضيب من الكلّاب، ووضعه في الخارج في حوض سقاية الماشية، وجلس على عارضة نير الثور تاركاً ساقيه تتدليان منها. بعد نصف ساعة ظهر صاحب المزرعة. «إليّ بقضيب البندق!»، قال له.

قفز إيجر عن العارضة، وأخرج القضيب من الحوض. كرانتزشتوكر جعل القضيب يصفر في الهواء. كان ينحني بمرونة في يده مخلفاً وراءه غلالة من قطرات الماء المتلألئة.

«أنزل سروالك!»، أمره المزارع. فطوى إيجر يديه أمام صدره، وهزّ رأسه.

قال كرانتزشتوكر: «انظر إلى هذا، ابن الزنا يريد أن يخالف صاحب المزرعة».

قال إيجر: «أريد أن تدعني وشأني، ليس أكثر».

دفع صاحب المزرعة فكه السفلي نحو الأمام. بين جذور لحيته النابتة علقت بقايا حليب جاف، وعلى رقبته كان ينبض عرْق طويل متموج. تقدّمَ خطوةً إلى الأمام، ورفع يده.

قال إيجر: «إذا ضربتني، سأقتلك!». وتوقف المزارع في منتصف حركته.

عندما كان إيجر في حياته اللاحقة يعود بذاكرته إلى تلك اللحظة، كان يبدو له كما لو أنهما يومذاك قضّيا المساء كله واقفَيْن في مواجهة بعضهما: هو بذراعيه المطويتين على صدره، وصاحب المزرعة بعود البندق في قبضته المرفوعة. الاثنان صامتان وكره بارد في نظراتهما. في الحقيقة استغرق ذلك بضع ثوان على الأكثر. على القضيب سالت قطرة ماء ببطء نحو الأسفل، انفصلت بارتجافة، وسقطت على الأرض. من الحظيرة وصل الصوت المكتوم لمضغ البقرات. في المنزل قهقه أحد الأطفال، ثم عاد الصمت إلى المزرعة.

أنزل كرانتزشتوكر ذراعه. «امضِ الآن من هنا»، قال بصوتٍ ذابلٍ. وذهب إيجر.

***

رغم أن أندرياس إيجر كان يُعتبر شخصاً ذا إعاقة، لكنه كان قوياً. كان يستطيع التصدي لمهامه، ويطالب بالقليل، وبالكاد يتكلم، ويتحمل حرارة الشمس في الحقول تماماً مثلما يتحمل البرد القارس في الغابة. كان يقبل بأي عمل، وينجزه بأمانة وبلا تذمّر. كان يجيد العمل بالمنجَل مثلما يجيده بالمذراة. يقلّب العشب المقصوص حديثاً، ويحمِّل عرباتِ النقل بروثِ الحيوانات، ويعتل الحجارة وحِزَمَ التبن من الحقول. كان يدبّ مثل خنفساء فوق الأرض، ويصعد الجبل بين الصخور ملاحقاً الماشية التائهة. كان يعرف في أي اتجاه ينبغي تقطيع كل نوع من أنواع الخشب، كيف يوضع الإسفين، وكيف يُبْرَد المنشار، وكيف تُجلَخ البلطة. نادراً ما كان يذهب إلى الحانة، ولم يكن يسمح لنفسه بأكثر من وجبةِ طعامٍ وكأسٍ من البيرة أو الكراوترر. بالكاد كان يقضي ليلةً في السرير، إذ غالباً ما كان ينام على القش، في العلية والحجرات والاصطبلات قرب الماشية. أحياناً في ليالي الصيف المعتدلة، كان يفرش غطاء في مكان ما فوق مرجٍ

مقصوصٍ عشبُه حديثاً، ليستلقي على ظهره رافعاً أنظاره إلى السماء المليئة بالنجوم.

وأحياناً عندما كان يستلقي هكذا وقتاً طويلاً بما يكفي، كان ينتابه شعور بأنّ الأرض تحت ظهره تصعد وتهبط برفق، وفي تلك اللحظات كان يدرك أنّ الجبال تتنفس.

في التاسعة والعشرين من عمره كان إيجر قد جمع ما يكفي من المال ليُقدِمَ على استئجار قطعة أرضٍ مع مستودع للتبن. كانت قطعة الأرض تقع مباشرة تحت خط نموّ الأشجار، أعلى القرية بخمسمائة متر، ولا يمكن الوصول إليها إلّا عبر الممر الوعر الضيق الذي يؤدي إلى قمة المر شبيتسه. كانت عملياً عديمة الفائدة، شديدة الانحدار، ناتئة، ومليئة بعدد لا ينتهي من الحجارة، وبالكاد كانت أكبر من حوش الدجاج الذي يقع خلف مزرعة كرانتزشتوكر. لكن، قربها تماماً كان قد تفجّر، من بين الصخور، نبعٌ صغير من مياهٍ عذبةٍ باردةٍ كالثلج، وفي الصباح كانت الشمس تطلع على قمة الجبل، أبكر بنصف ساعة من القرية، لتدفئ الأرض تحت قدمي إيجر اللذَين رطّبهما ندى الليل. قام بقطع بعض الأشجار من الغابة المحيطة، ونجرها في مكانها، ثم جرّ الدعائم إلى مخزنه ليسند بها الجدران المائلة. ومن أجل الأساسات قام بحفرِ خندقٍ، وملأَهُ من حجارة أرضه التي كانت كما لو أنها لا تنقص، بل يبدو وكأنّ حجارةً جديدةً تنمو كل ليلة في الأرض الجافة المغبرة. كان يجمع الحجارة، ولأنه كان يشعر

بالملل أثناء ذلك، أخذ يمنحها أسماء. وعندما انتهت من عنده الأسماء، صار يمنحها كلمات. وعندما بدا واضحاً بالنسبة له أنّ الحجارة التي في أرضه أكثر مما يعرف من كلمات، قام ببساطة بإعادة العملية من جديد. لم يحتج إلى محراث ولا إلى ماشية. كانت أرضه أصغر من أن يُنشئ فوقها مزرعته الخاصة، ولكنها كانت كبيرة بما يكفي لتتسع لحديقة خضار صغيرة. وفي النهاية نصب سياجاً واطئاً حول بيته الجديد، وبنى له بوابة صغيرة لم يكن لها في النهاية إلا هدف واحد، وهو أن يستطيع يوماً ما فتحها وتثبيتها لزائر محتمل قد يمرّ به.

كانت بالإجمال فترة زمنية جيدة. كان إيجر راضياً، ولو كان الأمر على هواه لودّ لو استمر ذلك كما هو الآن إلى الأبد. لكنْ عند ذلك وقعت حادثة هانيس ذي القرون. رغم أنه، وفق فهمه للذنب والعدالة، لم يكن يستطيع فعل شيء حيال اختفاء راعي الماعز، إلا أنّ إيجر لم يخبرْ أحداً قطّ بما جرى في العاصفة الثلجية. تم اعتبار هانيس ذي القرون ميتاً، ورغم أنّ جثته لم يُعثرْ عليها أبداً، إلا أنّ أحداً، بمن فيهم إيجر نفسه، لم ينتبْه الشك لحظة واحدة حيال ذلك. إلا أنّ صورة الهيئة الهزيلة التي تلاشت ببطء في الضباب أمام عينيه، لم يعد باستطاعته نسيانها.

لكنّ إيجر منذ ذلك اليوم كان يحمل في داخله شيئاً آخر أيضاً لا يُنسى: ألماً سرى، بعد لمسةٍ قصيرةٍ لثنيةِ قماش، في لحم عضده، وكتفِه، وصدره، ثم استقر في مكان ما عند قلبه. كان ألماً

طفيفاً للغاية، لكنّه أعمق من كل الآلام التي كان إيجر قد خَبِرها طوال حياته، بما فيها ضربات كرانتزشتوكر بقضيب البندق.

كان اسمها ماري، وكان إيجر يراه أجمل اسم في العالم. ظهرت قبل بضعة أشهر في الوادي باحثة عن عمل، بحذاء امّحى نعله، وشعرٍ مغبرّ. لحسن حظها أنّ صاحب النزل كان قبل أيام قليلة فقط قد ألقى بخادمته خارجاً إلى الجحيم بسبب حملها غير المتوقع. «أرني يديك!»، قال لماري. بإيماءة رأسٍ راضيةٍ عاين مساميرَ الجلد في أصابعها، وعرض عليها الوظيفة الشاغرة. ابتداء من ذلك الوقت بدأت تخدم النزلاء، وتعدّ الأسرّة في الغرف القليلة التي كانت قد جُهّزتْ للعمال الموسميين. تولّت مسؤولية الدجاج، وكانت تساعد في الحديقة، وفي المطبخ، وفي ذبح الماشية، وإفراغ مراحيض النزلاء. لم تشكُ أبداً، ولم تكن مغرورة ولا بكّاءة. «أبعد أصابعك عنها»، قال صاحب النزل دافعاً إلى صدر إيجر بسبّابته التي تلمع بشحم الخنزير المسيّح لتوّه. «ماري فتاة للعمل وليست للحب، مفهوم؟».

«مفهوم» قال إيجر، وأحس مجدداً بذلك الألم الطفيف في ناحية القلب. لا أكاذيب أمام الله، أخذ يفكّر، ولكن أمام صاحبِ نزلٍ، بلى.

انتظرها يوم الأحد بعد الكنيسة. كانت ترتدي فستاناً أبيض، وقبّعةً صغيرة بيضاء على رأسها. ومع أنّ القبعة الصغيرة بدت جميلة حقاً، وجد إيجر أنّها ربما تكون قد صغرتْ عليها قليلاً.

ذكّره ذلك بالجذامير الداكنة التي تنشق عن أرض الغابة في بعض المواضع، والتي تزهر فوقها بين فينة وأخرى بأعجوبة زنبقة وحيدة بيضاء. لكن، ربما كانت القبعة الصغيرة أيضاً ملائمة تماماً. لم يعرف إيجر. لم تكن لديه فكرة عن تلك الأشياء. كانت تجاربه مع النساء تقتصر على القداديس حين كان يجلس في الصف الأخير من الكنيسة، منصتاً لغنائهن الصادح وشبهَ مخدّرٍ من العطر الخاص بأيام الآحاد والذي تفوح به شعورهن المغسولة بالصابون والمطيَّبة بالخزامى.

«أريد...»، قال بصوت أجش، وتوقّف في منتصف الجملة، فقد غاب عنه فجأة، ما كان يريد قوله حقيقة.

وقفا بعض الوقت في فيء الكنيسة، وصمتا. كانت تبدو متعبة. بدا وجهها وكأنّ شيئاً من الضوء الخافت لبهو الكنيسة مايزال عليه. على حاجبها الأيسر علقتْ حبّةُ طلعٍ صفراء، كانت تهتز مع الريح الخفيفة. فجأة ابتسمت له. وقالت: «صار الطقس بارداً الآن، هل يمكننا أن نمشي قليلاً في الشمس؟».

مشيا جنباً إلى جنب على طريق الغابة الذي يصعد متعرّجاً خلف الكنيسة إلى هارتزركوجل. بين العشب كان جدول صغير يترقرق، وفوقهما كانت رؤوس الأشجار تخشخش. في كل مكان في الأدغال كان يُسمع تغريدُ طيورِ أبي الحناء، لكنْ ماإن كانا يقتربان منها حتى تصمت. توقفا عن السير في منطقة جرداء من الغابة. فوقهما عالياً، كان هناك صقر بلا حراك. فجأة خفق

بجناحيه وسقط مائلاً على أحد جانبيه. بدا وكأنه ببساطة يسقط من السماء، واختفى من مجال رؤيتهما. قطفت ماري بعض الأزهار، ورمى إيجر حجراً بحجم الرأس إلى الأدغال، هكذا فقط، لأن لديه الرغبة في ذلك والمقدرة عليه. في طريق العودة، عندما كانا يقطعان جسراً خشبياً متهالكاً، أمسكت بساعده. كانت يدها خشنة ودافئة مثل قطعة خشبية مشمَّسة. ودَّ إيجر لو أنه يضعها على خده ويبقى واقفاً هكذا فقط. بدل ذلك، خطا خطوة كبيرة، وتابع السير مسرعاً. وقال لها، من دون أن يلتفت إليها: «احذري، من السهل جداً أن يلوي المرء عظامه على هذه الأرض!».

كانا يلتقيان كلَّ أحد، ولاحقاً كانا أحياناً يلتقيان أيضاً خلال الأسبوع. عندما كانت طفلة صغيرة، وبينما كانت تتسلق سوراً خشبياً متزعزعاً، سقطت في حظيرة الخنازير، وقامت خنزيرةٌ أمٌّ مذعورةٌ بعضِّها. منذ ذلك الحين وهي تحمل ندبة تمتد قفا عنقها، بطول ما يقارب عشرين سنتيمتراً، حمراء لامعة في شكل هلال. لم يكن ذلك يزعج إيجر. كان يرى أن النُّدَبَ مثل السنين، تأتي واحدة تلو أخرى، وكلها معاً هو ما يصنع الإنسان. ماري بدورها لم تكن تزعجها ساقه العوجاء. على الأقل لم تقل شيئاً. لم تأتِ مرةً على ذكر عرجه، ولا بكلمة. في العموم كانا قليلي الكلام. كانا يمضيان جنباً إلى جنب، ويراقبان ظلَّيْهما المتشكّلين أمامهما فوق الأرض، أو كانا يجلسان في مكان ما على حجر، وينظران إلى الوادي.

بعد ظهر أحد الأيام، نهاية أغسطس، أخذها إلى أرضه. انحنى، وفتح بوابة السياج الصغيرة، موسّعاً لها كي تدخل قبله. قال لها إنه ما يزال يتوجب عليه أن يدهن الكوخ. فالريح والرطوبة تنخران الخشب أسرع مما يمكن للمرء أن يتخيل، ثم يولّي الإحساس بالراحة بعد ذلك. قال إنه زرع في الأعلى بعض الخضار، وأنّ الكرفس مثلاً قد صار عملياً أعلى من رأس المرء. الشمس تسطع هنا في الأعلى أكثر إشراقاً من الوادي في الأسفل، ولهذا أثرٌ حسنٌ ليس فقط على النباتات، بل إنه يبعث الدفءَ في عظام المرء وفي نفسه. وبالطبع يجب ألّا ننسى الإطلالة، قال إيجر راسماً بذراعه قوساً واسعة، حيث يمكن رؤية المنطقة كلها، بل حتى ما وراءها عندما يكون الطقس جميلاً. في الداخل أيضاً يريد أن يدهن، وضّح لها. بالطبع يجب مزج الدهان بالحليب الطازج بدلاً من الماء، من أجل ثباته. والمطبخ أيضاً ربما تطلّب تجهيزه على نحو ملائم، لكن، حسناً، على أية حال فإنّ الأشياء الضرورية كالأواني والصحون وأدوات المائدة ومثل هذه الأشياء موجودة، وعندما تسنح الفرصة فإنّه سيقوم أيضاً بتلميع المقالي. لن يكون بالمناسبة هناك حاجة لإسطبل، إذ لا يوجد مكان للماشية، ولا وقت أيضاً، وهو في النهاية لا يريد أن يكون مزارعاً. أن يكون مزارعاً يعني بالحرف: أن يقضي العمر كله وهو يهيم زاحفاً فوق حقله، خافضَ النظرة وهو ينبشُ الأرض. إذ على الرجل في رأيه

أن يرفع نظره إلى أبعد ما يمكنه. أن ينظر إلى ما هو أبعد من قطعة أرضه الضيقة المحدودة.

لاحقاً خلال حياته لم يستطع إيجر أن يتذكر أنّه حدَث وتكلّم كثيراً هكذا كما حصل حينها عند الزيارة الأولى لماري لأرضه. كانت الكلمات تتداعى منه هكذا ببساطة، وكان يستمع إليها مذهولاً، كيف تصطف خلف بعضها من تلقاء ذاتها تماماً ليخرج منها معنى، لم يكن يتّضح حتى بالنسبة إليه إلّا على نحو مفاجئ بعد أن يتلفظ بها.

عندما نزلا إلى الوادي عبر الطريق المتعرّج الضيق، عاد إيجر إلى صمته. شعر بالغرابة، وبالحرَج قليلاً، من دون أن يعلم لماذا. عند واحدة من تعرّجات الطريق أخذا استراحة. جلسا على العشب، وأسندا ظهرَيْهما إلى جذع شجرةِ زانٍ أوروبي هاوية. كان الخشب قد خبّأ دفء أيام الصيف الأخيرة، وفاحت منه رائحة الطحالب الجافّة والصمغ. حولهما، سمقت قمم الجبال في السماء الصافية، وقد وجدت ماري أنها تبدو كالبورسلان، ورغم أن إيجر لم يكن قد رآه في حياته كلها، قال إنّها على حق. على المرء أن يكون حذراً في سيره هناك، قال، خطوة واحدة خاطئة وتتصدع الأرض كلّها، أو تنفجر إلى ما لا يُعدّ من شظايا الأراضي الصغيرة. ضحكت ماري وقالت: «يبدو هذا مضحكاً».

«نعم»، قال إيجر، ثم أخفض رأسه، ولم يعد يعرف ماذا يقول. ودّ لو ينهض، ليمسك بصخرة، ويرمي بها إلى مكان ما.

أعلى وأبعد ما يمكن. لكنه أحس فجأة بكتفها على كتفه. رفع رأسه وقال: «لم أعد أستطيع التحمل أكثر!» التفت إليها، أمسك وجهها بكلتا يديه، وقبّلها.

قالت. «آه، كم أنت قوي!».

«المعذرة!»، قال لها وسحب فزِعاً يديه.

قالت له: «كان ذلك جميلاً رغم هذا».

«رغم أنه تسبب بالألم؟».

قالت: «نعم، إنه جميل جداً».

أخذ وجهها مرة أخرى بين يديه، ولكنْ بحذرٍ هذه المرة، كما يمسك المرء ببيضة دجاج أو بكتكوت فقّس للتو.

قالت: «نعم، حسن هكذا»، وأغمضت عينيها.

ودّ لو يطلب يدها في اليوم ذاته، أو في اليوم التالي على أبعد تقدير. لكن لم تكن لديه فكرةٌ كيف ينبغي عليه أن يقوم بذلك. طوال الليالي كان يجلس على عتبة بيته التي صنعها بنفسه، يحدّق في العشب المضاء بضوء القمر عند قدميه، بينما أفكاره تدور حول عجزه. لم يكن مزارعاً، ولم يرد أن يكون مزارعاً. لكنه أيضاً لم يكن صاحب حرفة، ولا حطّاباً، ولا راعياً. حقيقةً، كان يكسب عيشه كعامل مساعد، كأجير لكل الفصول والمناسبات. هكذا، رجلاً يصلح تقريباً لكل شيء، لكن ليس ليكون زوجاً. النساء يتوقّعن أكثر من زوج المستقبل. إلى هذه الدرجة كان إيجر

يعتقد أنه يفهم النساء. لو كان الأمر له، لقضى بقية حياته جالساً على حافة طريق، يداً بيدٍ مع ماري، مستندَيْن إلى جذع شجرة صنوبرية. لكنّ الأمر الآن لم يعد عائداً له وحده. كان يعرف واجباته في هذا العالم. لقد أراد أن يحمي ماري ويعتني بها. على الرجل أن يرفع نظره إلى أبعد ما يمكنه النظر إليه متجاوزاً قطعة أرضه، هذا ما كان قد قاله لها، وهذا ما كان يريد القيام به أيضاً.

قصد إيجر معسكر شركة بيترمان وأبناؤه، والذي كان في تلك الأثناء قد توسع فوق المرج المنحدر بأكمله على الجهة الأخرى من الوادي، حتى أصبح سكانه أكثر عدداً من سكان القرية ذاتها. استدل على قمرة الوكيل المسؤول عن تعيين العمال الجدد، ودخل مكتبه بتخوّف على غير عادته، فقد خاف أن يتلف بحذاءيه الغليظين السجادة الممدودة على كامل الأرض، كاتمةً صوت خطواته كما لو كان يمشي فوق الطحالب. كان الوكيل رجلاً بديناً بصلعةٍ مغطاة بالندوب ومحاطةٍ بإكليل من شعر حليق. كان يجلس خلف طاولة من الخشب الأسود، ورغم دفء الغرفة إلا أنه كان يرتدي سترة جلدية مبطنة بفرو الخروف، ويجلس منكباً على كدسة من الملفات. وقد بدا أنه لم يلحظ دخول إيجر. لكنْ في اللحظة التي أراد فيها إيجر أن يلفت نظره بصوت ما، رفع رأسه بشكل مفاجئ.

وبادره بالقول: «أنت تعرج. لا يمكن أن نستفيد من شخص أعرج».

أجاب إيجر: «لا يوجد في المنطقة عاملٌ أفضل مني. أنا قوي، أستطيع القيام بأي شيء، أقوم بكل شيء».

«لكنك تعرج».

«في الوادي ربما»، قال إيجر. «أما فوق الجبل فأنا الوحيد الذي تستقيم مشيته».

ببطء أسند الوكيل ظهره إلى المقعد. حل في المكان صمت، جثم على قلب إيجر كغلالة قاتمة. حدق بالجدران المدهونة بالأبيض، ولوهلة لم يعد يعرف لماذا أتى إلى هنا أساساً. أطلق الوكيل زفرة. رفع يده ورسم بها إشارة، كما لو أنه أراد أن يمحو إيجر من مرمى نظره، ثم قال: «أهلاً بك في «بيترمان وأبناؤه». لا كحول. لا زنى. ولا نقابات عمالية. تبدأ العمل غداً صباحاً عند الساعة الخامسة والنصف!».

كان إيجر يساعد في تقطيع الخشب، وفي بناء العوارض الحديدية التي كانت تستمر في شق طريقها إلى أعلى الجبل في خط مستقيم مطَّرد، تفصل بين كل اثنتين منها مسافة خمسين متراً، وترتفع كل واحدة منها عدة أمتار فوق أعلى بناء في القرية وهو الكنيسة. كان يحمل خشباً وحديداً وإسمنتاً صعوداً فوق المنحدر، ثم نزولاً مرة أخرى. يشق خنادق للأساسات في أرض الغابة، ويحفر في الصخور حفراً بعرض ذراع، كان خبير المتفجرات يُدخل فيها أصابع ديناميته. أثناء التفجيرات كان

يجثم مع الآخرين على مسافةِ أمانٍ فوق جذوع الأشجار الواقعة على يسار ممر الغابة العريض ويمينه. كانوا يسدّون آذانهم، ويشعرون تحت مؤخراتهم بالانفجارات وهي تزلزل الجبل. ولأنه يعرف المنطقة كما لا يعرفها تقريباً أحد سواه، ولم يكن لديه رهاب من المرتفعات على الإطلاق، كان غالباً ما يُرسَل في المقدمة، وكان أولَ شخص يصل إلى مكان الحفر. يصعد فوق الركام الصخري، ويتسلق بين الصخور، ويتعلق بالجدران الصخرية القائمة محميّاً بحبلٍ رفيعٍ فقط، وهو يوجه أنظاره أمامه مباشرةً إلى سحابة الغبار الصغيرة وهي خارجة من حفرته التي حفرها في الصخر. كان إيجر يحب العمل في الصخور. ففي الأعالي هنا كان الهواء منعشاً ونظيفاً، وكان أحياناً يسمع العقاب الذهبي يزعق أو يرى ظله ينزلق بصمت فوق الجدار الصخري. كان كثيراً ما يفكر بماري، بيدها الدافئة الخشنة وندبتها التي كان يرسم في روحه مراراً شكلها المقوَّس.

في الخريف كان التوتر قد استولى على إيجر. فهو يرى الآن بشكل حاسم أن الوقت قد حان ليطلب يد ماري، لكنه لا يملك أيّ فكرة عن الطريقة التي تلزمه ليقوم بذلك. عند المساء كان يجلس على عتبة بابه، ويسترسل في تصورات وأحلام مشتتة. قال لنفسه، بالطبع، لا يمكن أن يكون طلب زواجه مجرد أي طلب. يجب أن يكون طلباً يحمل بطريقة ما في طياته عظَمةَ حبه، ويبقى محفوراً إلى الأبد في ذاكرة ماري وقلبها. فكّر بشيءٍ مكتوب،

إلا أنه كان يكتب أقل بكثير مما يتكلم، بل هو يكاد لا يكتب أبداً. علاوة على ذلك، فإن مثل هذه الرسالة - حسب رأيه - لا تقدم الكثير. كيف يمكن لقصاصة واحدة أن تتسع لجميع أفكاره ومشاعره بكل جيشانها؟ كان يود لو يكتب حبّه فوق الجبل، هائل الحجم ومرئياً من بعيد لجميع من في الوادي. حكى عن المشكلة لزميله توماس ماتل الذي كان يقتلع معه جذوراً مستعصية من الأرض على حافة درب الغابة. كان ماتل حطاباً خبيراً وواحداً من أقدم موظفي الشركة. منذ ما يقرب الثلاثين عاماً جاب مع فرق متغيرة المناطق الجبلية، ليجتثوا الغابات باسم التقدم، ويزرعوا السقالات الحديدية والأعمدة الخرسانية في الأرض. رغم عمره وأوجاعه التي تغرز أسنانها بقوة في ظهره - كما كان يقول - فقد كان يتحرك بين الأدغال رشيقاً وخفيف الخطى. ربما في الحقيقة أجل، هناك إمكانيةٌ لكتابة شيء فوق الجبل، قال له ماتل، ووضع يده فوق وجهه الملتحي، وذلك بحبر الشيطان: النار. في شبابه قام بتقطيع الأشجار لبضعة أصياف في المناطق الشمالية من أجل بناء الجسر، وهناك شهد تقاليد (شعلة القلب المقدس) القديمة، حيث يشعلون عند الانقلاب الشمسي رسوماً هائلة مصممة بالنار، ويضيئون الجبل في الليل. إذا كان المرء يستطيع أن يرسم بالنار، قال له، فهو يستطيع أيضاً أن يكتب بها. على سبيل المثال شيء من قبيل طلب زواج لماري هذه. ثلاث، أربع كلمات، أكثر من هذا لا يمكن بالتأكيد، فأكثر من هذا يصبح

أيضاً غيرَ قابلٍ للتنفيذ. هل تقبلين بي؟ أو تعالي يا حبيبة قلبي– أي شيء، مما تحب النساء سماعه.

«هكذا يمكن للأمر أن يتحقق»، أضاف ماتل غارقاً في أفكاره، ثم مد يده خلف رأسه، وأخرج فرعاً متبرعماً دقيقاً كان قد علق بياقته. قضم البراعم الصغيرة البيضاء واحدة وراء الأخرى ومصها كما لو كانت سكاكر من الكراميل.

«أجل»، أومأ إيجر موافقاً. «هكذا يمكن للأمر أن يتحقق».

بعد أسبوعين، في وقت متأخر من بعد ظهر أولِ أحدٍ في أكتوبر، تسلق سبعة عشر شخصاً، وهم من أكثر الرجالِ الموثوقِ بهم في مجموعة إيجر، الركامَ الصخريّ فوق حرف أدلركانته، ليقوموا تحت تعليمات ماتل الهادرةِ بصوتٍ أجش، بصفِّ مئتين وخمسين كيساً صغيراً من الكتان يزن واحدها كيلو غراماً ونصف، محشوة بالنشارة ومبلولة بالبترول، يفصل بين كل اثنين منها مترين على طول خط مرسوم من حبال القنّب. قبل ذلك ببضعة أيام كان إيجر قد جمع الرجال بعد الانتهاء من العمل في سرادق المقصف، كي يوضح لهم خططه، ويقنعهم بالاشتراك فيها: «ستحصلون على سبعين جروشن وربع لتر من الكراوترر»، قال لهم، وجال ببصره على وجوه الرجال المتسخة. في الأسابيع الأخيرة كان قد ادّخر المال من أجره، ووضع القطع النقدية المعدنية في علبة شموع صغيرة، وأودعها في حفرة في الأرض تحت عتبته.

«نريد ثمانين جروشن ونصف لتر!» قال ميكانيكي ذو شعر أسود، كان لم يمض على انضمامه إلى الشركة، قادماً من لومبارداي، سوى بضعة أسابيع، وبفضل حميّته التي تغلي كالمرجل اكتسب قدراً من السلطة في المجموعة.

«تسعون جروشن ودون الكراوترر»، رد عليه إيجر.

«لا بد من الكراوترر».

«ستين جروشن ونصف لتر».

«اتفقنا!»، صرخ ذو الشعر الأسود وخبط بقبضته على الطاولة للتأكيد على الصفقة.

جلس توماس ماتل معظم الوقت على نتوء صخري مشرفاً على حركة الرجال. لم يكن مسموحاً ولا بأية حال من الأحوال أن يفصل بين الأكياس الصغيرة أكثر من مترين، وإلا فإن فجواتٍ ستظهر في الكتابة. «لا يمكن أن نترك الحب يضيع بسبب حرفٍ مثقوبٍ يا أعمى القلب!»، صرخ، ورمى حجراً بحجم قبضة اليد باتجاه عامل سقالة كانت المسافات التي قدّرها أكبر قليلاً مما ينبغي.

في موعدها بالضبط، وعند مغيب الشمس، كانت جميع الأكياس قد وُزعت في أماكنها. حل الليل على الجبال، وزحف ماتل من صخرته إلى أول كيس من أول حرف. أطل بنظره على المنحدر حيث كان الرجال قد توزّعوا بشكل منتظم. ثم نفض الغبار عن سرواله، ونبش علبة كبريت من جيب بنطلونه، وأشعل

بها عصا ملفوفةً بخرقٍ مبللةٍ بالبترول، كانت مغروزة في الأرض أمامه. أمسك الشعلة ولوّحها فوق رأسه، وأطلق أوضح وأعلى صياح سبق وقام به طوال حياته. في الوقت ذاته تقريباً، اشتعلت ست عشرة شعلة فوق الركام الصخري، وبدأ الرجال بأسرع ما استطاعوا، يتراكضون على طول الخطوط، ويشعلون الأكياس واحداً تلو الآخر. قهقه ماتل بصوت منخفض. بشعور بالرضا، كان يفكر بالكراوترر الذي ينتظره، وكان يحسّ على رقبته بالأنفاس الباردة لليل، الذي كان يستمرُّ في هبوطه فوق الجبال.

في تلك اللحظة بالضبط كان أندرياس إيجر تحتُ في الوادي يضع ذراعه حول كتفَيْ ماري. كانا قد تواعدا وقت الغروب عند جذع شجرةٍ قرب الجسر الصغير القديم، وتماشياً مع رغبة إيجر، لقد حضرتْ في الموعد بالضبط. كانت ترتدي فستاناً من الكتّان فاتحَ اللون، وتفوح من شعرها روائحُ الصابون والتبن وشيء أيضاً – كما رأى إيجر – من رائحةِ لحمِ الخنزيرِ المحمَّر. كان قد فرش سترته فوق جذع الشجرة، وأشار إليها بأن تجلس. قال لها إنه يريد أن يريها شيئاً ما، شيئاً لعلها لن تنساه بعد ذلك أبداً. سألته ماري: «هل هو شيء جميل؟». وقال لها: «قد يكون كذلك». جلسا جنباً إلى جنب، وراقبا بصمتٍ الشمسَ وهي تختفي خلف الجبال. كان إيجر يسمع طَرقات قلبه. للحظة بدا له كما لو أن قلبه لا يدقّ في صدره بل في جذع الشجرة تحته، كما لو أن حياة جديدة دبّت في الخشب المتعفّن. ثم سمعا من بعيد

صياح توماس ماتل، وأشار إيجر في العتمة. «انظري»، قال لها. وبعد ثانية ومض في الأعلى على الجانب الآخر من الوادي ستة عشر ضوءاً، وأخذت تتحرك مثل سرب من اليراعات المضيئة في كل الاتجاهات. بدت الأضواء وكأنها تفقد في طريقها قطرات متوهّجة أخذت تندمج خلف بعضها البعض بشكل خيوط متموجة. كان إيجر يشعر بجسد ماريا قربه. وضع ذراعه على كتفيها، واستمع إليها تتنفس برقّة. في الأعلى كانت الخيوط المتوهجة تستمر في التقافز على شكل أقواس فوق المنحدر، أو تتحد معاً بهيئة أشكال مدورة. في النهاية لمعت نقطتان إلى اليسار في الأعلى وعرف إيجر أن ماتل العجوز بذاته شخصياً قد زحف فوق الركام الحجري، وأشعل كيسَي البترول الأخيرين.

«لأجلكِ ماري». كانت مكتوبةً بأحرفٍ مرتعشةٍ فوق الجبل، هائلةَ الحجم ومرئيةً من بعيد لجميع مَنْ في الوادي. كان حرف الـ M أعوج بعض الشيء، كذلك كانت تنقصه قطعة، بدا بغيابها وكأن أحداً قد مزّقه في المنتصف. يبدو أن كيسين على الأقل لم يشتعلا، أو أنهما لم يوضعا هناك أساساً. أخذ إيجر نَفَساً عميقاً، ثم استدار إلى ماري، وبذل جهده ليتبين وجهَها في العتمة. «هل تقبلين الزواج بي؟»، سألها.

«أجل»، همست بصوتٍ خافتٍ لدرجةٍ لم يكن متأكداً معها أنه فهمها بشكل صحيح. «هل تقبلين بذلك ماري؟»، سألها مرة أخرى.

«نعم، أقبل بذلك»، قالت له بصوت حازم. وانتاب إيجر شعور أنه في اللحظة التالية لا محالة سيسقط عن جذع الشجرة نحو الخلف. لكنه بقي جالساً. تعانقا، وعندما تركا بعضهما كانت النيران قد انطفأت فوق الجبل.

لم تعد ليالي إيجر الآن وحيدة. ففي السرير إلى جانبه كانت تستلقي زوجته وهي تتنفس برقّة، وأحياناً كان يستطيع مراقبة جسدها الذي كان يرتسم تحت الغطاء، ورغم أنه كان قد ازداد معرفة به طوال أسابيع، إلا أنه كان ما يزال يبدو له أعجوبة غير معقولة. كان عمره الآن رسمياً ثلاثة وثلاثين عاماً، وكان يعلم واجباته. فهو بوِدّه أن يحمي ماري وأن يعتني بها، هكذا كان قد قال لنفسه، وهكذا أراد أن يفعل. ولهذا فقد وقف ثانية في أحد صباحات يوم الاثنين في قمرة الوكيل أمام مكتبه، وقال له: «أريد المزيد من العمل»، ولفَّ قبعته الصوفية بين يديه. رفع الوكيل رأسه، ورمقه متبرماً: «لا أحد يريد مزيداً من العمل!».

«بلى، أنا. لأنه سيصبح لديَّ عائلة».

«أنت إذن تريد المزيد من المال، وليس المزيد من العمل».

«إذا كنت ترى ذلك، فلا بد أن يكون ذلك صحيحاً».

«نعم، أعتقد أنني أراه هكذا. كم تكسب الآن؟».

«ستين جروشن في الساعة».

أسند الوكيل ظهره إلى الخلف، ونظر خارج النافذة التي

ارتسمت عليها، خلف طبقةٍ من الغبار، قمة هاننتزينه البيضاء. ببطء، مسَّد بيده على صلعته، ثم أخرج زفرة قوية، ونظر إلى إيجر في عينيه. «ستحصل على ثمانين، لكنني أريدك من أجل كل جروشن أن تمزق مؤخرتك في العمل. هل ستفعل ذلك؟».

هز إيجر رأسه موافقاً، وزفر الوكيل. ثم قال له شيئاً، رغم أن إيجر لم يفهمه في تلك اللحظة، لكنه لم ينسه طوال حياته: «بمقدور المرء أن يشتري من رجل ساعاته، يمكنه أن يسرق أيامه، أو أن ينهب حياته كاملة. لكن أحداً لا يستطيع أن يأخذ من رجل ولا حتى لحظة واحدة. هكذا هو الحال، والآن اتركني في سلام!».

***

كانت الآن الفرق التابعة لشركة بيترمان وأبناؤه قد وصلت في عملها إلى ما فوق خط الأشجار، تاركة خلفها ندبة جرح طولُه كيلومتر ونصف تقريباً، ويبلغ عرضه في بعض المواقع حتى الثلاثين متراً. كان قد تبقّى للوصول إلى محطة الجبل المخطط لها تقريباً أربع مئة متر فقط، لكن التضاريس كانت شديدة الانحدار، ولا يمكن الوصول إليها، وكان ينبغي أن تتخطى القطعة الأخيرة حائطاً يكاد يكون شاقولياً، هناك عالياً تكلل رأسَه صخرةٌ مائلة، كان أهالي المنطقة يطلقون عليها بسبب شكلها اسم الجمجمة العملاقة. تعلّق إيجر طوال أيام كثيرة تحت ذقن الجمجمة العملاقة بالضبط، وقام بحفر حُفَر في الغرانيت، كان يزرع فيها مسامير تثبيتٍ بطول ساعدٍ من المفترض أن تحمل لاحقاً سلماً معدنياً طويلاً لفنيي الصيانة. بإحساس سرّي بالفخر أخذ يفكر بالرجال الذين سيتسلقون في وقت ما هذا السلم، غير مدركين أنهم مدينون بحياتهم له وحده ولمهارته. في فترات استراحته القصيرة كان يجثم فوق نتوء صخري ويلقي بنظره

نحو الوادي. كانوا منذ عدة أسابيع يرصفون الشارع القديم بالركام ويزفتونه، واستطاع أن يرى في البخار السديمي رجالاً غير واضحي المعالم، بدوا على ذلك البعد صامتين ظاهرياً، يعالجون الإسفلت الحار بالمعاول والمجارف.

في الشتاء كان إيجر واحداً من القلائل الذين مايزالون على جدول رواتب الشركة. سويّاً مع حفنة من رجال آخرين -من بينهم توماس ماتل، الذي أثبت أنه عظيم الفائدة للشركة بفضل خبرة عمرٍ قضاه في الغابات -واصلوا العمل على توسيع الطريق، وإخلائها من الحجارة والنفايات الخشبية والجذور. كثيراً ما كانوا يقفون ويطمرهم الثلج حتى خصورهم ليقتلعوا جَذراً من الأرض المتجمّدة، بينما الريح تلقي الندف الجليدية كحبيبات الخردق في وجوههم، إلى أن يبدأ جلدهم بالنزف. خلال العمل كانوا يتحدثون فقط عند الضرورة، وفي استراحات الغداء كانوا يجلسون صامتين تحت شجرة تنوب مغطاة بالثلج، يشوون عيدان خبزهم في النار. كانوا يزحفون خلف بعضهم بين الأدغال، أو يجلسون خلال العواصف عند صخرة محتمين بها من الريح، وهم ينفخون في أيديهم المتشققة من البرد. كانوا مثل الحيوانات، هكذا كان إيجر يرى، يزحفون فوق الأرض، ويقضون حاجتهم تحت أقرب شجرة، وكانوا قذرين لدرجة يصعب معها تمييزهم عما حولهم. كان كثيراً ما يفكر بماري، التي تنتظره في البيت. لم يعد وحيداً، ورغم أنه لم يكن قد اعتاد

على هذا الشعور بعد، إلا أنه كان يُشعرهُ بالدفء أكثر من النار التي يدسّ في جمرها حذاءه المتجمّد كالحجر.

في الربيع، وبعد أن بدأ ذوبان الثلج، وأخذ الماء يتقاطرُ، ويُسمع خريرُه على نحو مليء بالسحر في كل مكان في الغابة، حلّتْ كارثة في مجموعة إيجر. أثناء معالجة شجرة صنوبر منقصفة تحت الثلوج المتراكمة، زال الضغط عن الخشب مترافقاً مع فرقعةٍ حادّة، واندفعتْ من الجذع شظيّةٌ بطول رجل، اقتلعت الذراع اليمنى للحطاب الشاب جوستل جرولرر، التي لسوء حظه كان يرفعها فوق رأسه من أجل ضربة الفأس التالية. سقط جرولرر أرضاً، ونظر إلى ذراعه التي تمدّدت على أرض الغابة على بعد مترين، ماتزال أصابعها تطبق على مقبض الفأس. للحظةٍ حلَّ صمتٌ عجيب، وبدا كما لو أن الغابة كلها قد جمدت حابسة أنفاسها. في النهاية كان توماس ماتل أول من دبت الحركة فيه ثانية. قال:

«يا يسوع، يبدو هذا سيئاً».

أحضر من صندوق العدة عروة سلكية يستخدمونها لنزع لحاء الأشجار، ثم شدها بكل ما أوتي من قوة حول جدعة ذراع جرولرر، التي كان يفور منها الدم الداكن. أطلق جرولرر صرخة، وألقى بجذعه إلى الجهة الأخرى، ثم رقد فاقداً وعيه.

«سنحل هذا حالاً»، قال ماتل، ولف منديله حول الجرح. «لم يحدث أن نزف أحدهم حتى الموت هكذا بسرعة!».

اقترح أحد الرجال أن يقطعوا الفروع ليصنعوا منها نقالة، وانبرى آخرٌ يدلك ماتبقى من الذراع بحفنة من أعشاب الغابة، إلا أنه دُفع بعيداً. ثم تم الاتفاق أخيراً على أنه من الأفضل النزول بالمصاب كما هو إلى القرية، وشده بالأحزمة فوق ظهر عربة ديزل والذهاب به إلى المستشفى. رفع الميكانيكي القادم من اللومبارداي جرولرر عن الأرض، ووضعه مثل شوال رخو على كتفيه، وقد دار نقاش قصير حول ما ينبغي عمله بالذراع. ينبغي لفها وإحضارها معهم، هكذا اقترح البعض، فلربما يتمكن الأطباء من إعادتها لمكانها. لم يتمكن بعدُ حتى أكثر الأطباء دهاءً من إعادة ذراع كاملة إلى مكانها، اعترض الآخرون، لكن وحتى إذا تحقق شيء كهذا بطريقة ما، فإنها ستتدلى فقط على جانب جرولرر ذابلة وقبيحة، وستسبب له المتاعب طوال ماتبقى من حياته. بعد ذلك كان جرولرر بنفسه من أنهى النقاش، عندما أفاق من غيبوبته، ورفع رأسه فوق ظهر الميكانيكي: «ادفنوا ذراعي في الغابة. ربما ينمو منها شجيرة عرن!».

بينما شق بقية الرجال طريقهم مع الحطاب السابق جوستل جرولرر إلى القرية، بقي إيجر وتوماس ماتل حيث هما في مكان الحادث، ليطمرا الذراع. كانت أوراق الشجر والأرض التي رقدتْ فوقها داكنةً من الدم، وكان ملمس أصابعها حين قاما بفكها عن مقبض الفأس شمعياً وبارداً. على رأس السبابة حطت

خنفساء طويلة القرون صغيرة حالكة السواد. مد ماتل الذراع المتيبسة وتفحَّصها مضيقاً عينيه. وقال. «إنه غريب حقًّا. للتو كان هذا جزءاً من جرولرر، والآن هو ميت، بالكاد أكثر قيمة من فرع فاسد. ما رأيك: هل مايزال جرولرر الآن هو جرولرر؟».

رفع إيجر كتفيه وردّ عليه: «ولم لا؟ ليس إلا جرولرر، إنما بذراع واحدة فقط».

«وماذا لو أن الشجرة كانت قد اقتلعت كلتا ذراعيه؟».

«كذلك عندها. سيظل هو جرولرر».

«وماذا لو أنها اقتلعت، لِنقلْ هذه المرة: كلتا يديه وكلتا ساقيه ونصف رأسه؟».

فكر إيجر بالأمر وقال بصوتٍ خفيض: «على الأرجح سيبقى عندئذ هو جرولرر... على نحو ما أو آخر». ثم فجأة لم يعد هو ذاته متأكداً من الأمر.

تنهّد توماس ماتل. وضع الذراع بعناية فوق صندوق العدة، وحفرا سوية ببضع ضربات من الرفش حفرة في الأرض. بدأت الغابة في هذه الأثناء تعاود تنفسها، وفوق رأسيهما أخذت الطيور تغرد. كان النهار بارداً، لكن الغطاء الذي صنعته الغيوم انزاح الآن، وهبط ضوء الشمس بِحزَم لامعة عبر القبّة التي صنعتها أوراق الشجر، جاعلاً الأرض موحلة وطرية. وضعا الذراع في قبرها الصغير، وردماه. كانت الأصابع آخر ما غاب عن النظر.

للحظة برزت من الأرض مثل يرقات سوس الطحين السمينة، ثم اختفت. انتشل ماتل محفظة تبغه، وعبّأ غليونه الذي كان قد نحته بنفسه من خشب البرقوق.

قال: «يا له من أمر وسخ! هذا الموت، يتناقص المرء ببساطة بمرور الوقت. يجري هذا بسرعة مع أحدهم، ومع آخر قد يستغرق طويلاً. بدءاً من ولادتك، تبدأ خساراتك واحدة تلو الأخرى: في البداية تخسر إصبعاً من أصابع قدميك، ثم ذراعاً. في البداية سناً، ثم جميع أسنانك. أوّلَ الأمرِ ذكرى، ثم الذاكرة كلها، وهكذا دواليك، حتى يأتي يومٌ لا يتبقى منك شيء. ثم يرمون آخر ما تبقى منك في حفرة، ويردمونها، وهذا كل شيء».

وقال إبجر: «وسيحل برد، برد ينخر روح المرء».

نظر العجوز إليه، ثم لوى فمه، وقذف بصاقاً -مرّ قريباً جداً بأنبوب غليونه – على شظية شجرة الصنوبر الغادرة، التي التصقت بحوافها دماء جرولرر. وقال:

«هراء. لن يحدث أي شيء، لا برد ولا أية روح أصلاً. الموت هو الموت وانتهينا. بعده لا يوجد شيء، ولا الله أيضاً. إذ لو كان هناك إله، لما كانت مملكة سمائه بعيدة كل هذا البعد!».

توماس ماتل ذاته، تقريباً في مثل هذا اليوم بعد تسع سنوات بالضبط، أُخذ من هذا العالم. لقد تمنّى طوال حياته أن يموت أثناء العمل، لكن ما حصل كان غير ذلك. أثناء استحمامه في حوض الاستحمام الوحيد في موقع العمل، وكان عبارة عن شيء هائل

منبعج من الحديد المطلي قام أحد الطهاة بتأجيره للعمال لقاء قليل من المال، غفا توماس ماتل. عندما أفاق ثانية، كان الماء بارداً كالثلج، وأصيب ببردٍ، لم يشفَ منه أبداً. قضى عدة ليال مستلقياً فوق مضجعه الخشبي وهو يتعرّق ويهذي بأشياء مشوَّشة، كانت تدور إما حول أمه المتوفاة منذ زمن بعيد أو حول «شياطين الغابة شاربي الدماء». ثم نهض ذات صباح، وأوضح أنه الآن بصحة جيدة، وأنه يريد الذهاب إلى العمل. لبس سرواله على عجل، وخرج من الباب، مدّ رأسه نحو الشمس، وخرّ ميتاً. دفنوه في المرج المنحدر قرب مقبرة القرية، والذي كانت الشركة قد اشترته من البلدية. اجتمع تقريباً جميع الموظفين المتواجدين لإلقاء تحية الوداع والاستماع لكلمة التأبين التي كان قد جمّعها أحد رؤساء العمال وتحكي عن العمل الشاق في الجبل وعن روح ماتل النقية.

توماس ماتل كان واحداً من بين ما مجموعه رسمياً سبعة وثلاثون رجلاً، قضوا حتفهم أثناء العمل لدى شركة بيترمان وأبناؤه حتى إفلاسها سنة 1946. لكن في الحقيقة كان أكثرَ من ذلك بكثير عددُ من خسروا حياتهم في سبيل بناء التلفريك الذي كان منذ الثلاثينات يتوسع بسرعة متزايدة. «مقابل كل جندول ينزل شخصٌ تحت الأرض»، قالها ماتل ذات مرة في واحدة من لياليه الأخيرة. لكنّ بقية الرجال كانوا حينها قد توقفوا عن أخذ كلامه على محمل الجد، فقد ظنوا أنّ الحرارة قد أحرقت آخر ما تبقى من إدراك في دماغه.

هكذا أنهى أندرياس إيجر عامه الأول مع شركة بيترمان وأبنائه. وتلفريك فيندينكوجلر الأول (كانت تلك هي تسميته الرسمية، إلا أنها لم تكن تُستخدم إلا من قبل العمدة والسياح– إذ بسبب عرَبَتَيْه بلونيهما الأزرق البراق واللتين إضافة لذلك، وبسبب واجهتهما المسطحة نوعاً ما، كانتا تذكّران السكان المحليين بحرم العمدة، وكانوا لهذا يطلقون على التلفريك ببساطة فقط اسم «ليزل الزرقاء»). تم تدشينه في حفلِ افتتاحٍ كبير في محطة الجبل، حضره جمْعٌ غفيرٌ من أناس متأنّقين قدِموا من بعيد، وببدلاتٍ رسمية رقيقة وفساتين أكثر رقة منها وقفوا فوق المنصة يرتجفون من البرد، وأخذ القسيسُ يصيح بتبريكاته في وجه الريح، بينما كان رداؤه يطير حول جسده مثل الريش الأشعث لغراب الزرع. وقف إيجر وسط زملائه الذين توزَّعوا تحت الجمجمة العملاقة فوق الجبل، وفي كل مرة كان يرى فيها الناسَ في الأعلى فوق المنصة يصفقون كان يرفع ذراعيه ويطلق صرخة حماس. كان يشعر في أعماقه بإحساس غريب بالاتساع وبالفخر. كان يشعر بنفسه جزءاً من شيء كبير، شيءٍ يتجاوز حدودَ قوتِه (بما فيها قوة خياله)، وأنه – الأمر الذي كان يعتقد أنه يستطيع تبيّنه – سيدفع ليس فقط بالحياة في الوادي بل بشكل ما، سيدفع بالبشرية كلها أيضاً في طريق التقدم. منذ أن أخذت ليزل الزرقاء في رحلتها التجريبية قبل بضعة أيام تتأرجح صاعدة الجبل للمرة الأولى وهي تهتز بحذر، ولكن من دون حوادث تذكر، بدا وكأن الجبال

قد خسرت شيئاً من سطوتها الأبدية. وسيكون هناك المزيد من العربات المعلّقة. كانت الشركة قد مدّدت عقود جميع العمال تقريباً، وقدمت خططاً لبناء ما مجموعه خمسة عشر تلفريكاً، من بينها تصميم يقف له شعر الرأس، سيتم وفقه نقل المسافرين مع حقائب ظهورهم وأدوات تزلجهم ليس في عربات إنما على مقاعد خشبية معلقة في الهواء. وجد إيجر هذه الفكرة مدعاة للضحك في الواقع، لكنه كان معجَباً في سرّه بالمهندسين الذين عصروا من رؤوسهم أشياء خيالية من هذا النوع، والذين على ما يبدو لا العواصفُ الثلجية ولا حرارةُ الصيف تستطيع أن تعكر طمأنينتهم أو بريق أحذيتهم الملمَّعة دائماً على نحو لا تشوبه شائبة.

***

بعد ذلك بنصفِ عمْرٍ أو أربعة عقود تقريباً، تحديداً في صيف عام 1972 وقف إيجر في المكان نفسه، وأخذ يراقب الجنادل الفضية البرّاقة لِما كان يُعرف بليزل الزرقاء وهي تطوف في الهواء عالياً فوق رأسه بيسر وسهولة ولا يرافقها سوى أزيز بالكاد يسمع. فوق المنصة في الأعلى كانت أبواب الجنادل تفتح بأزيز ممطوط، مطلِقةً جمهرةً من المتنزهين الذين كانوا يتدفقون مفترقين عن بعضهم في جميع الاتجاهات، ويتوزعون مثل حشرات ملوّنة في كل مكان فوق الجبل. كان إيجر يغضب من هؤلاء الناس، الذين يتسلّقون هنا وهناك بهذا الطيش فوق

الركام الصخري، ويبدون دائمي البحث عن أي سحر دفين. كان يودّ لو يعترضهم في طريقهم، ليخبرهم رأيه، لكنّه لم يكن يعرف في واقع الأمر حقيقةً علامَ ينبغي عليه أن يلومهم!

في سرّه، بهذا استطاع على أية حال أن يعترف لنفسه أنّه كان يحسد المتنزهين. كان يشاهدهم كيف يتقافزون بأحذيتهم الرياضية وسراويلهم القصيرة فوق الصخور، ويحملون أولادهم على أكتافهم، ويبتسمون لآلات تصويرهم. أما هو، فقد كان رجلاً عجوزاً، لم يعد ينفع لشيء، وسعيداً أنه ما يزال باستطاعته التحرك بقامة منتصبة إلى حد ما. لقد مضى على وجوده في هذا العالم وقت طويل، شهد فيه كيف تغير، وكيف بدا وكأنه يدور - مع كل سنة تأتي- أسرع من ذي قبل. وقد بدا له كما لو كان هو بقيةً من زمن اندثر منذ وقت طويل، عشبةً شوكية، تمد رأسها، طالما أمكنها ذلك بطريقة ما، باتجاه الشمس.

***

الأسابيع والشهور التي تلت حفل الافتتاح في محطة الجبل كانت أسعد فترة في حياة أندرياس إيجر. كان يرى نفسه ترساً مسناً صغيراً، ولكنه ليس عديم الأهمية، في آلة جبارة تسمى التقدم، وكان أحياناً قبل أن يغفو يتخيل نفسه جالساً في بطن هذه الآلة التي تشق طريقها عبر الغابات والجبال، لا يمكن لشيء أن يقف في وجهها، وأنه بكدّ يمينه وعرقِ جبينه، كان يساهم في هذا التقدم المطّرد. وعبارة كد يمينه وعرق جبينه كان قد أخذها عن مجلة مهترئة، كانت ماري قد عثرت عليها تحت واحدٍ من مقاعد النزل، وكانت تقرأ له منها في بعض المساءات. فإلى جانب كل أصناف الأفكار عن أزياء المدن، والبستنة، وتربية الحيوانات الأليفة، والأخلاق العامة، كانت هناك أيضاً قصة في المجلة. تحكي القصة عن نبيل روسي فقد ثروته، يقود خلال أحد الشتاءات عربته قاطعاً بها نصف روسيا، كي ينجو بعشيقته – وهي ابنة فلاح حباها الله بمواهب عجيبة – من مطاردة عددٍ من وجهاء القرية المتعصبين دينياً، من بينهم والدها هي. انتهت

القصة نهاية مأساوية، لكنها كانت تحتوي على عدد كبير مما يسمونه مشاهد رومانسية، كانت تسردها ماري برجَفانٍ في صوتها بالكاد يُسمع، وتثير عند إيجر مزيجاً غريباً من التقزز والافتتان. كان يصغي للكلمات التي تخرج من فم ماري، ويشعر كيف كانت تنشر الحرارة شيئاً فشيئاً تحت سقف بيته. الحرارة التي، كما كان يرى، ستملأ الكوخ كله قريباً. كلما كان النبيل الفقير وابنة الفلاح يستريحان في عربتهما في البرية التي غطاها الثلج، خلفهما يُسمع وقع حوافر الخيل والصراخ الغاضب لمطارديهم، وكلما رمت الفتاة الخائفة نفسها بين ذراعَيْ الكونت لامسة أثناء ذلك خده بحواشي ثوبها المتسخ من أثر الرحلة، كان إيجر يعجز عن التحمّل أكثر، فيركل غطاءه عن جسده، ويحدّق عالياً بعينين ملتهبتين في الظلمة المرتعشة تحت دعائم السقف. كانت ماري عندئذٍ تضع المجلة بعناية تحت السرير، وتطفئ الشمعة. «تعال»، تهمس له في العتمة، وكان إيجر يصغي.

في نهاية مارس 1935 جلس إيجر وماري بعد غروب الشمس على عتبة البيت، ينظران إلى الوادي. كان ثلجٌ غزيرٌ قد هطل في الأسابيع الأخيرة، إلا أن الحلولَ المفاجئَ للدفء منذ يومين أعلن قدومَ الربيع. ذاب الثلج في كل مكان، وتحت إفريز السطح كانت مناقيرُ صغارِ السنونو خلالَ النهار تطلّ من فوق حافة العش. من الصباح الباكر حتى وقت متأخر كانت السنونوات الكبيرة تطير حاملة في مناقيرها الديدانَ والحشراتِ إلى صغارها، وكان إيجر

يقول، إن «مجموع ما تبرّزته صار كافياً، ليفرش به أساساتِ بناءٍ جديد». لكنّ ماري أحبّت الطيور، كانت ترى فيها تمائمَ مرفرفةً، تردّ الشرَّ عن المنزل، وهكذا تأقلم إيجر مع وسخها وسُمِح للعش بالبقاء.

جال إيجر ببصره فوق القرية والجانب المقابل لها من الوادي. كانت النوافذ في العديد من البيوت قد أضيئت. منذ فترة صار هناك كهرباء في الوادي، وفي بعض الأيام، كان يمكن هنا أو هناك رؤيةُ فلاحٍ عجوزٍ جالساً في حجرته أمام مصباح كهربائي، وهو يحدّق في ذهول في وهَجه الساطع. كذلك في المعسكر كانت الأضواء قد أشعلت، ومن المداخن الحديدية الرفيعة تصاعد الدخان عمودياً تقريباً في المساء والسماء مغطاة بالغيوم. من بعيد بدا وكأن الغيومَ قد رُبِطت بخيوطٍ رفيعة إلى الأسطح، وتعلّقتْ مثل بالونات هائلة لا أشكال لها فوق الوادي. كانت عرباتُ ليزل الزرقاء قد توقفت، وأخذ إيجر يفكر بِفنيَّيْ الصيانة اللذين يزحفان بمِزْيتتيهما في هذه اللحظة بالضبط داخل غرفة الماكينات، ليقوما بتزييت مجموعة التروس المسننة. كان قد تمّ الانتهاء من إنجازِ تلفريك آخر، ومن أجل تلفريك ثالث في الوادي المجاور كانوا قد بدؤوا بشقِّ طريقٍ في الغابة، أطول وأعرض من الطريقين الأولين معاً. نظر إيجر إلى قطعة أرضه الشديدة الانحدار والمغطاة بالثلج والتي امتدت أمامه. أحس بموجة صغيرة دافئة من الرضى تعلو في داخله، كان يود أن يقفز،

ويُخرج صرخةَ سعادتِه إلى العالم، لكن ماري كانت تجلس هناك هادئة وساكنة. هكذا بحيث بقي هو جالساً أيضاً.

«ربما نستطيع الحصول على مزيد من الخضار»، قال لها. «يمكنني توسيع الحديقة. خلف المنزل، أعني. بطاطا، وبصل، ومثل هذه الأشياء».

«نعم، ليست فكرة سيئة، أندرياس»، قالت له. نظر إليها إيجر. لم يستطع تذكر مرةٍ واحدةٍ سبقَ وخاطبته فيها باسمه. لقد كانت المرة الأولى، وبدا إحساساً غريباً. مررت باطن يدها على جبينها قليلاً، وأزاح نظرَه ثانية.

«علينا أن نرى، إن كان ممكنا لكل هذا أن ينمو فوق أرض كهذه».

قال ذلك، وأخذ يحفر برأس حذائه في الأرض المتجمدة.

قالت له: «سينمو شيء ما، وسيكون شيئاً في غاية الروعة».

نظر إليها إيجر ثانية. كانت تجلس ساندة ظهرها إلى الوراء قليلاً، ووجهها بالكاد يُرى في ظلال المدخل. وكان بالإمكان فقط تمييز عينيها، قطرتين لامعتين في العتمة.

«لماذا تنظرين هكذا؟»، سألها بصوت منخفض. فجأة شعر بالضيق، كيف أنه يجلس هنا، قرب هذه المرأة، التي كانت بالنسبة له أليفةً كل هذه الألفة، وفي الوقت ذاته غريبةً عنه بهذا الشكل. حرّكتْ جذعها إلى الأمام قليلاً، وأرخت يديها في حجرها.

بدت يداها له ناعمتين وبيضاوَين بشكل غير معتاد. مستحيلٌ أنهما قبل ساعات قليلة فقط كانتا تقطعان الحطب بالفأس. مد ذراعه، ولمس كتف ماري، ورغم أنه كان مايزال ينظر إلى يديها البيضاوتين في حجرها إلا أنه عرف أنها كانت تبتسم.

في الليل أيقظَ إيجر صوتٌ عجيب. لم يكن أكثر من توجّس، همسٌ ناعم يحوم حول الجدران. استلقى في العتمة وأصاخ السمع. شعر بدفء زوجته قربَه، وسمع أصوات تنفسها الهادئة. أخيراً نهض، وخرج. دفعته رياحُ الفهن[1] الدافئة، وكادت تنتزعُ البابَ من يده. في سماء الليل كانت غيومٌ سوداء تستريح، يلوح من بينها مرةً بعد أخرى قمرٌ شاحب لا شكل له. خاض إيجر صعوداً في المرج مبتعداً قليلاً. كان الثلج ثقيلاً ورطباً، وكان يُسمع في كل مكان خريرُ ذوبان المياه. فكر بالخضراوات وبباقي الأشياءِ التي ينبغي القيامُ بها أيضاً. الأرض لم تكن تعطي الكثير، لكن ما تعطيه سيكون كافياً. فكّر، يمكنهم الحصول على عنزة أو ربما حتى بقرة من أجل الحليب. بقي واقفاً. في مكان ما في الأعلى سمع صوتاً، بدا هكذا وكأنّ شيئاً ما داخلَ الجبل قد انفلق مترافقاً مع زفرة. ثم سَمع هديراً عميقاً متضخماً، وبعد لحظة واحدة فقط، بدأت الأرض تهتزّ تحت قدميه. شعر فجأة بالبرد. خلال ثوانٍ ارتفع الهديرُ إلى نغمةٍ حادة واضحة. وقف

---

(1) رياح محلّية دافئة وجافة، تشكل ظاهرة مناخية في جبال الألب.

إيجر بلا حراك، يستمع إلى الجبل وهو يبدأ بالغناء. ثم رأى على بعد عشرين متراً تقريباً شيئاً كبيراً أسود، مرَّ دون صوتٍ، بسرعةِ البرق، وحتّى قبلَ أن يتبيّن له أنّ ذلك كان جذعَ شجرة، أقلع راكضاً. ركض في الثلج العميق عائداً إلى البيت، وصاح منادياً ماري، ولكنْ، في اللحظة التالية أمسك به شيءٌ، ورفعه عالياً. شعر بنفسه كيف حُمل بعيداً، وكان آخرَ ما رآه، قبل أن تجرفه موجةٌ مظلمة، هو ساقيه، اللتين ارتفعتا فوقه في السماء، كأنهما فقدتا الارتباط بباقي جسده.

حين استرد إيجر وعيه، كانت الغيوم قد اختفت، وظهر القمرُ في البياض مشعّا في سماء الليل. من حوله ارتفعت الجبال في ضوء القمر، بدت قممُها المتجمدة وكأنّها سبائك من الصفيح، وبدت بحدّتها ووضوحها كما لو كانت ستشقُّ السماء. كان إيجر مستلقياً على ظهره بشكل منحدر. استطاع تحريكَ رأسِه وذراعيه، لكنَّ ساقيه كانتا مغروزتين في الثلج حتى خصره. بدأ يحفر بكلتا يديه. أخذ يجرف ويكشط الثلج عن ساقيه، وعندما حررهما رآهما مذهولاً، وهما ممدودتين أمامه، باردتين وغريبتين مثل قطعتي خشب. بقبضتي يديه انهال ضرباً على فخذيه. «إياكما أن تتركاني الآن وحيداً»، قال ذلك، وأطلق أخيراً ضحكة مبحوحة فمع الألم تدفّقَ الدمُ أيضاً في الساقين. حاول النهوض، لكنه وقع فوراً. شتم ساقيه اللتين لا تُرجى منهما فائدة، وشتم جسده كله الذي كان أضعف من جسد طفل صغير. «قم هيا، لتنهض

الآن!» قال مخاطباً نفسه، وعندما حاول مرة أخرى، كان له ذلك، ووقف. كانت المنطقة قد تغيرت. الانهيار الجليدي دفن تحته أشجاراً وصخوراً، وسوّى الأرض. امتدت الكتل الثلجية مثل غطاء ضخم في ضوء القمر. حاول أن يستدلّ على الجهات من خلال الجبال. بالقدر الذي تمكّن من تبيّنه، وجد نفسَه تحت كوخه بحوالي ثلاثمائة متر، كوخه الذي لابدّ أنه فوقُ، في الأعلى، خلف تلّة من الثلج المتكدّس. مضى في طريقه. كان المسير أبطأ مما قد تصور، لم يكن ممكناً تخمينُ طبيعةِ الثلج الذي جرفه الانهيار الجليدي، ففي موضع يكون قاسياً كالصخر وكأنه صُبّ مع التربة التحتانية، ثم بعد خطوتين فقط يكون ناعماً وطحينياً مثل مسحوق السكر. كان الألم شديداً. وكان قلقاً على ساقه السليمة أكثر من أي شيء آخر. كان يشعر بها، وكأنّ شوكةً من الحديد تخز فخذه وتحفر أعمقَ في لحمه مع كل خطوة يخطوها. فكّر بصغار السنونو. عسى موجة الضغط لم تنل منها. صحيح أن العش كان موجوداً في مكان محمي بشكل جيد، وكان هو قد بنى خشب السقف بشكل متين. رغم ذلك ينبغي عليه تقوية الدعائم الأفقية تحتها، سوف يثقّل السطحَ بالحجارة، والجهة الخلفية سوف يدعمها بجدار تدعيم من قطعِ صخورٍ متداخلةٍ في بعضها، سيبني أساساته عميقاً في المنحدر. «لكن يجب أن تكون الحجارة مسطحة!»، قال لنفسه بصوت عال. وقف لفترة قصيرة، وأصاخ سمعه. لكنْ بالكاد كان يُسمع صوت. كانت ريح الفهن

قد اختفت، ولم يكن هناك سوى نسيمات رقيقة جداً تخز جلده. تابع سيره. كان العالم حوله ساكناً وميتاً. للحظة انتابه شعور أنه الإنسان الأخير على الأرض، أو على الأقل الإنسان الأخير في الوادي. ما دفعه للضحك. «يا لهذا الهراء»، قال لنفسه وتابع سيره. كانت المسافةُ الأخيرةُ الواقعةُ أسفلَ تلّةِ الثلجِ شديدةَ الانحدار، وكان عليه أن يزحف على أربع. كان الثلج تحت أصابعه سريع التفتت، وبدا له دافئاً بشكل غريب. العجيب أن وجع ساقيه كان قد اختفى الآن، لكن عميقاً في عظامه كان مايزال البرد دفيناً، وكان يشعر بعظامه خفيفةً وهشةً كالزجاج. «قليلاً وأكون هناك»، قال لنفسه أو لماري أو لأيٍّ كان، لكنّه في اللحظة ذاتها أدرك أنه لم يعد هناك أحدٌ ليسمعه، وعندما سحب جذعه إلى ما فوق قمة التلة، أجهش بالبكاء بصوت عال. جثا على ركبتيه في الثلج، وأطل على المساحة المضاءة بالقمر، التي يقع فوقها منزله. صاح باسم زوجته في ذلك الصمت. «ماري! ماري!» نهض، وطاف بلا هدف في أنحاء أرضه. تحت طبقةٍ من مسحوقٍ بعمق يصل حتى الركبة. كان الثلج قاسياً كما لو أن مدحلة قد رصفته. تناثرت في كل مكان ألواحُ السقف الخشبية، والحجارةُ، والخشبُ المتكسّر. استطاع أن يتعرّف على الحلقة الحديدية لبرميل المطر الذي يملكه وقربها مباشرةً إحدى فردتَيْ حذائه. على موضع مرتفع قليلاً برزت من الأرض قطعةٌ من المدخنة. تقدم إيجر بضع خطوات، إلى حيث خمّن أن المدخلَ يقع تحته.

سقط على ركبتيه وبدأ يحفر الأرض. ظل يحفر حتى أدمت يداه وصار لون الثلج تحته داكناً. بعد ساعةً، عندما كان قد صار على عمق حوالي متر ونصف، وعندما تحسس بأصابعه المجروحة إحدى دعامات السقف التي خلعها الانجراف الجليدي، والتي كانت كما لو أنها مصبوبة بالإسمنت، توقف عن الحفر. انتصب ونظر عالياً إلى السماء، ثم مال بجذعه إلى الأمام، وأرخى وجهه فوق الثلج المضرّجِ بدمه.

استغرق الأمرُ عدةَ أسابيع حتى تجمعت قطع الحكايات المختلفة مع بعضها البعض، وأخذت وقائعُ تلك الليلةِ في رؤوس الأهالي تسلسلاً يمكنهم استيعابُه. أتى الانجراف الثلجي عند الساعة الثانية وثلاثين دقيقة. كانت قد انفصلت كتلة هائلة عن اللسان الجليدي تحت قمة ألمرشبيتسه بخمسين متراً تقريباً، واندفعتْ هابطةً من الجبلَ بقوةٍ هائلة. بسبب التضاريس الشاقولية تقريباً عند موضع الانكسار، ازدادت سرعة الانجراف الثلجي بسرعة، وخلّفت في طريقها باتجاه الوادي أثراً مدمراً. راعدةً عبرت الكتلُ الثلجية بمحاذاة الجانب الخلفي للقرية وصولاً إلى الجانب المقابل للوادي، حيث أحدثت انهياراً جليدياً ثانوياً صغيراً وصلت نهايته الشمالية حتى معسكر العمل التابع لشركة «بيترمان وأبناؤه»، ثم سكنت أخيراً لا تبعد سوى مقدارَ ذراعٍ عن حوض استحمام توماس ماتل القديم. جرّ الانهيارُ الجليديِ معه الغابةَ المقتَلعة، وخلّف وراءه حوضاً عميقاً امتدَّ حتى التلة الواقعة

عند بركة القرية. القرويون تحدثوا عن انفجار عميق، تلاه صوت هدير أو خشخشة، كان يتناهى إلى مسامعهم مثل وقعِ حوافرِ قطيعٍ جرارٍ من الماشية، أخذ يقترب من القرية نازلاً من الجبل بسرعة. هزّت موجةُ الضغطِ النوافذَ، وسقطت في كل مكانٍ تماثيلُ مريم العذراء والمسيح المصلوب على الجدران. غادر الناس بيوتهم هاربين، ومشوا في الشارع، وفوق رؤوسهم المطأطئة غيمةٌ من غبارِ الثلج، بدتْ كأنها ستبتلع النجوم. اجتمعوا أمام الكنيسة، وترافقت الأنشودة الهامسة للنساء المصليات مع الهدير الآخذ بالتلاشي للانهيار الجليدي. هبطت غيمة الثلج ببطء شديد، وغطت كل شيء بطبقة رقيقة بيضاء. أطبق صمت رهيب على الوادي، وأدرك السكان أن الأمر قد انقضى.

كانت الأضرار مدمِّرة، حتى أنها أسوأ بكثير من تلك التي حدثت بعد السيل الثلجي الكبير الذي وقع سنة 1873، والذي كان بعض المعمّرين في القرية يعتقدون أنهم مازالوا يتذكرونه، وتشهدُ بصمتٍ على الأرواح الست عشرة المطمورة في ستة عشر صليباً محفوراً في مذبح العائلة في مزرعة أوجفراينر. أربع مزارع، ومستودعي تبن كبيرين، والطاحونة الصغيرة عند الجدول الجبلي العائدة للعمدة، إضافة إلى خمسٍ من مقصوراتِ العمال وواحدٍ من مراحيض المعسكر كان قد دمرها الانجراف الثلجي كلياً أو على الأقل حطمها إلى قطع كبيرة. تسع عشرة بقرة، وثمانية وعشرون خنزيراً، وما لا يحصى من الدجاج، إضافة

إلى أن الخراف الستة الوحيدة في القرية كانت قد لاقت حتفها. بالجرّار أو بالأيدي العارية تم سحبُ جيَفِها من الثلج، وتم حرقها سوية مع قطع الخشب التي لم يعد لها نفع. طوال أيامٍ بقيت رائحة اللحم المحروق الكريهة عالقةً في الهواء، وغطت على رائحة الربيع، الذي حلّ الآن بشكل نهائي مذيباً أكوام الثلج، وكاشفاً بذلك عن الحجم الكلي للكارثة. مع ذلك أتى القرويون معاً يوم الأحد إلى الكنيسة، وحمدوا الله على فضله، إذ كانت رحمة الله وحدها ما تفسر كيف أنّ الانهيارَ الجليدي لم ينهِ حياةَ أكثرِ من ثلاثةِ أشخاص: الزوجين الفلاحَيْن العجوزين سيمون وهيدفيج يوناسر، اللذين حوصر منزلُهما تماماً بالثلج، واللذين بعد أن فُتحَ الطريق إلى غرفة نومهما عُثر عليهما في عناق وثيق في سريرهما، والوجهان متلامسان ومختنقان، إضافة إلى عاملة الحانة ماري رايزنباخر، عروس أندرياس إيجر الشابة.

رجالُ واحدةٍ من فرقِ الإنقاذِ التي تمّ تشكيلها على عجل ليلةَ الحادثة عثروا على كوخ إيجر وقد ابتلعه الثلج، وعثروا عليه وهو متكوّماً على نفسه أمام حفرة في الثلج تمّ حفرها بيدين عاريتين. عندما اقتربوا من مكان الحادث – هكذا رُوي له لاحقاً – لم يبدِ حراكاً، ولم يكن أيٌّ من الرجال لِيراهن بجروشن واحدٍ على أنّ حياةً ماتزال باقيةً في هذه البقجة البشرية القاتمة. لم يتمكن إيجر من تذكر تفصيلٍ واحدٍ من تفاصيل إنقاذه، إلا أنه حتى نهاية حياته

بقي محتفظاً بصورةٍ كالحلم عن المشاعل التي انبثقت من عتمة الليل والتي أخذت تتحرك باتجاهه ببطءٍ وتمايلٍ كالأشباح.

تمّ انتشالُ جثة ماري، ووُضِعتْ في النعش بالقرب من الزوجين يوناسير، ثم شُيّعت أخيراً إلى مقبرة القرية. جرى الدفن تحت ضوء الشمس الساطع، وفوق التراب المتكوم كانت تطن أولى النحلات الطنانة. جلس إيجر على مقعد، مريضاً وجامداً من الحزن، يتقبّل التعازي. لم يكن يفهم ما يقول الناس له، وكان يشعر بيديه وكأنّهما شيئان غريبان عنه، قام أحدهم بإعطائهما له.

وجد إيجر مأوى للأسابيع القادمة في الشمواه الذهبي. كان يستلقي معظم الوقت في السرير في غرفة صغيرة جداً خلف حجرة الغسيل. كان صاحب الحانة قد قدمها له. استغرق شفاء الكسور في ساقيه وقتاً طويلاً. وحيث أن مجبر الكسور ألويس كلامرر كان قد توفي قبل سنوات (كان السرطان قد التهم منه الحنك ونصف الفك ولحم الخد، حتى أمكن في النهاية مشاهدة أسنانه من خلال الخد المفتوح كما لو كان نافذة)، فقد توجب استحضار طبيب البلدة الشاب الذي كان قد انتقل إلى القرية الفصل الماضي فقط، والذي كان يكسب عيشه بشكل أساسي من الأطراف الملوية والمخلوعة والمكسورة للسيّاح القادمين للتنزه والتزلج بأعداد مستمرةٍ في التزايد. تحملت شركة بيترمان وأبناؤه أتعاب الطبيب، وصار لإيجر حول ساقيه رباطين من جبس ناصع البياض. في نهاية الأسبوعين حشروا له خلف ظهره

وسادة سميكة من القش، وسُمح له بشرب الحليب من الكأس بدلاً من ارتشافه من طبق فخاري كما كان يفعل حتى حينه.

بعد الأسبوع الثالث كان قد تعافى إلى الحد الذي صار فيه صاحب النزل ونادل البار كل يوم حوالي منتصف النهار يلفانه ببطانية حصان، ويرفعانه عن السرير، ويُجلسانه خارجاً أمام الباب على مقعد من خشب البتولا يستطيع منه رؤية المنحدر الذي كان بيتُه يقع فوقه، وحيث أضحى كل ما يمكن تمييزه الآن هو كومة حطام مضاءة بشمس الربيع الدافئة.

حوالي نهاية ماي طلب إيجر من أحد صبية المطبخ ساطوراً لتقطيع اللحم، مشحوذاً جيداً. وظل يقصقص ويقطّع رباطَيْ الجبس حتى تمكّن من فصل كل منهما إلى نصفين اثنين وبانت ساقاه بيضاوَين ونحيلتين كعودين مقشَّرين تمددتا فوق ملاءة السرير، وبدا له مظهرهما أشدَّ غرابة مما كانتا عندما سحبهما من الثلج متيبستين وباردتين قبل بضعة أسابيع.

ظل إيجر بضعة أيام يجر جسده المنهك جيئة وذهاباً بين السرير والمقعد المصنوع من خشب البتولا، حتى عاد إليه أخيراً الشعور بأن ساقيه تنتميان له وأنهما قويتان بما يكفي لحمله إلى مسافات أبعد. للمرة الأولى منذ أسابيع ارتدى سرواله على عجل، وانطلق باتجاه أرضه. سار عبر الغابة التي سوّاها الانهيار الجليدي بالأرض، ونظر إلى السماء المليئة بالغيوم الصغيرة المدورة، وإلى الأزهار التي نبتت في كل مكان بين قرم الأشجار

والجذوع المقتلعة، بيضاء وصفراء كصفار البيض وزرقاء زاهية. حاول أن يرى كل شيء بدقة كي يتذكره لاحقاً. أراد أن يفهم ما حدث، لكنه عندما وصل بعد ساعات إلى أرضه، ورأى الدعائم والألواح الخشبية المتناثرة، أدرك أنه ما من شيءٍ ليُفهَم. جلس على حجر، وأخذ يفكر بماري. كان يتخيل ما حدث تلك الليلة، وارتسمت في ذهنه صور فظيعة: معتدلةً، ذراعاها ممدودتان فوق الغطاء، جلست ماري في سريرها وأصاخت السمع بعينين واسعتين في العتمة، قبل ثانية فقط من الانهيار الجليدي الذي سحق الجدران كما لو كانت قبضة عملاقة، ودفع جسدها إلى الأرض الباردة.

***

في الخريف، بعد حوالي نصف عام من حدوث الانهيار الجليدي، غادر إيجر الوادي، لينتقل لأجل الشركة. لكنه كان قد فقد قدرته على العمل الشاق في قطع الحطب.

«ماذا سنعمل بشخص مثلك؟»، سأله الوكيل، بعد أن كان قد اجتاز السجادة من دون أي صوت وهو يعرج، وكان يقف الآن أمام طاولة مكتبه مطأطئاً رأسه. «أنت لم تعد تصلح لأي شيء»، قال له. هز إيجر رأسه موافقاً، وزفر الوكيل.

قال له: «بالنسبة لما حدث لزوجتك، يؤسفني ذلك، لكن إياك أن يخطر في بالك أن للتفجيرات علاقة بهذا. لقد حدث التفجير الأخير قبل بضعة أسابيع من الانهيار الجليدي!».

«لا يخطر لي هذا»، قال إيجر. أمال الوكيل رأسه، ونظر عبر النافذة لفترة.

«أوَقد تصدق أن للجبل ذاكرة؟»، سأله بشكل مفاجئ.

هز إيجر كتفيه. مال الوكيل على جانبه، أحدث صوت

غرغرة، وبصق في إناء صفيحي كان موضوعاً عند قدميه وقال أخيراً: «حسن إذن، إن شركة بيترمان وأبناؤه بنَتْ حتى الآن سبعة عشر تيلفريكاً، وصدقني، لن يكون هذا الأخير. الناس مهووسون تماماً بالانزلاق هابطين الجبل فوق ألواحهم الخشبية». دفع إناءه برأس حذائه تحت طاولة المكتب، ونظر إلى إيجر بجدية. وأضاف: «الله وحده يعلم لمَ. على أية حال التلفريكات يجب صيانتها: مراقبة الأسلاك، وتشحيم عجلات التشغيل، والعناية بسقوف العربات، وهلم جراً. أنت لا تحتاج دائماً أرضاً ثابتة تحت قدميك، صح؟».

«لا أعتقد»، قال إيجر.

«هذا جيد إذن»، قال الوكيل.

التحقَ إيجر بمجموعةٍ صغيرة تضمّ عددًا من الرجال قليلي الكلام، وجوهُهم الملتحية التي حرقتها شمس الجبل بالكاد تفصح عن انفعال في نفوسهم. كانوا في شاحنةٍ مغلقةٍ، مقرفصين غالباً في صندوق البضائع الخلفي، ينتقلون من تلفريك إلى تلفريك عبر الطرقات الجبلية التي كان عدد الطرقات المعبّدة فيها في تزايد مستمر، ويتولون أعمال الصيانة التي كانت أكثرَ تطلّباً من أن يتمكن العمال المستقرون في مواقع العمل من إنجازها. كانت مهمة إيجر هي الجلوس في إطار خشبي لم يكن مثبتاً على الحبال الفولاذية إلا بحبلِ أمانٍ وبَكَرةٍ تُفرمَلُ باليد،

والهبوط ببطء باتجاه الوادي، ليزيل الغبارَ والجليدَ وبرازَ الطيورِ المتيبسِ عن الحبال ومفاصل العوارض، ويزيّتها في النهاية بزيت جديد. لم يكن هناك أحد يرغب بهذا العمل، كان يشاع أن رجلين اثنين، كلاهما متسلّقان خبيران، سقطا ولاقيا حتفيهما في السنوات السابقة، وأن ذلك كان نتيجة الإهمال أو نتيجة عيب في المواد أو ببساطة، حصل ذلك فقط بسبب الريح التي كانت أحياناً تؤرجح الحبال الفولاذية أمتاراً بكلا الاتجاهين. لكن إيجر لم يكن خائفاً. كان يعرف أن حياته معلقةٌ بحبل رفيع، لكنه ما إن يصعد إلى عارضة، ويربط البكرة، ويثبّت مشبك الأمان، حتى يشعر أن هدوءاً يحل داخلَه، وأن الأفكارَ المضطربة واليائسة المحيطةَ بقلبه كغيمة سوداء كانت تتبدد شيئاً فشيئاً حتى لا يتبقى شيء سوى الحزن الصافي.

لشهورٍ عديدة كان إيجر يتنقل هكذا عبر الوديان، ينام ليلاً في شاحنة أو في غرفِ بنسيوناتٍ رخيصة، ويتدلّى نهاراً بين السماء والأرض. شاهد الشتاءَ وهو يحل فوق الجبال. كان يعمل تحت الثلج المتساقط بكثافة، يكشط الثلج عن الحبال بفرشاة معدنية، ويفصل عن ركائز العوارض نوازلَ جليدية طويلة، كانت تتكسر بصليلٍ خافتٍ هابطةً في الأعماق تحته، أو يبتلعها الثلج بصمت.

من بعيد كان يُسمع الهدير المكتوم للانهيارات الجليدية. أحياناً كان يبدو له كأنه يقترب منه، فيرفع نظره إلى المنحدر، متوقعاً موجةً هائلةً بيضاء، تدفعه أمامها بقليل، ثم تدحرجه في

النهاية، سوية مع الحبل والعارضة الفولاذية والعالم بأسره. لكن، كل مرة كان الهدير يختفي، لتسمع من جديد الصرخات الصادحة لغربان الزرع.

في الربيع عاد به الطريق إلى الوادي، حيث بقي لبعض الوقت، لإزالة حطام الأخشاب من طريق ليزيل الزرقاء، ولإصلاح الصدوع الصغيرة في أساسات العوارض. مرة أخرى وجد سكَناً لدى الشمواه الذهبي، في الغرفة ذاتها التي قضى فيها بساقَيْه المهشَّمتَيْن أياماً طويلة جداً. كل مساء كان يأتي من الجبل ميتاً من التعب، يأكل جالساً على حافّة السرير اللقمات المتبقية من حصته اليومية، وبمجرد أن يضع رأسه على الوسادة، كان يغط في نوم ثقيل بلا أحلام. ذات مرة استيقظ في منتصف الليل بإحساس غريب، وعندما رفع نظره إلى النافذة الصغيرة المغبرة تحت السقف، رآها مغطاة بعدد هائل من الحشرات الصغيرة. بدت أجنحة الحشرات متوهّجة في ضوء القمر، وأخذت تضرب الزجاج بصوتٍ كصوتِ تقليبِ الورقِ، بالكاد يُسمع. للحظة خطر لإيجر أنّ ظهورها لابد أن يكون إشارة، لكنّه لم يعرف ماذا تعني تلك الإشارة، وهكذا أغمض عينيه وحاول أن يغفو مجدداً. إنهم ليسوا سوى حشرات، أخذ يفكر، بعض الحشرات الصغيرة الغبية، وعندما استيقظ في الصباح الباكر، كانت قد اختفت.

مكث عدة أسابيع في القرية التي كانت كما تبيّن له أنّها قد تعافت إلى درجة كبيرة من آثار حادث الانهيار الجليدي، ثم

غادر. وقد تجنّب الذهاب لتفقّد أرضه أو الذهاب إلى المقبرة، وكذلك أيضاً لم يجلس على مقعد خشب البتولا. تابع طريقه، ومعلقاً في الهواء بين الجبال، كان يشاهد الفصولَ تحته وهي تمضي كلوحات ملوَّنة، لا تعني له شيئاً، ولا شأن له بها. لاحقاً كان يتذكر السنوات التي تلت الانهيار الجليدي كفترةٍ من الزمن فارغة صامتة، أخذت ببطء فقط وبشكل غير ملحوظ تقريباً تمتلئ ثانية بالحياة.

عندما سقطت من يده في يوم خريفي صافٍ لفافةُ ورقِ الصنفرة، وراحت مثل ماعز صغير طائش تقفز هابطةً المنحدر، ثم أبحرت في النهاية بعيداً فوق نتوء صخري، واختفت في الأعماق. توقف إيجر عن العمل لأول مرة منذ مدةٍ طويلة، وأخذ يتأمل المكان حوله. كانت الشمس تميل للغروب، وقممُ الجبال البعيدة أيضاً كانت تبدو واضحة للغاية وكأنّ أحداً قام للتو برسمها في السماء. قريباً جداً كانت هناك شجرة جمّيز وحيدة بلون أصفر متوهج، وبعيداً قليلاً كانت هناك أبقارٌ ترعى، وتلقي ظلالاً طويلة نحيلة ترافق تجوالها عبر المرج خطوة خطوة.

تحت مظلةِ كوخٍ صغيرٍ للعجول جلستْ مجموعةٌ من المتنزّهين. استطاع إيجر سماعهم وهم يتحدثون مع بعضهم ويضحكون، وبدت له أصواتهم غريبةً ومستساغةً في الوقت نفسه. تذكر صوت ماري وكم كان يحب الاستماع إليه. حاول أن يتذكر نغمته ونبرته، لكنه لم يفلح في ذلك.«لو أن صوتها على

الأقل بقي لي!»، قال لنفسه بصوت عال، ثم تقدم ببطء إلى أقرب عارضة فولاذية. نزل من هناك وأخذ يبحث عن ورق الصنفرة.

بعد ثلاثة أيام، وبعدما كان قد أمضى يوماً بارداً رطباً يكشط الصدأ عن براشيم قاعدةِ محطةٍ جبلية، قفز إيجر عن سلم الشاحنة الخلفي، ودخل إلى البنسيون الصغير الذي يقيم فيه مع الرجال الآخرين. قاده طريقُ غرفته إلى حجرةِ معيشةِ صاحبةِ البنسيون التي كانت تفوح منها رائحة الخيار المخلل. كانت المرأة العجوز تجلس وحيدةً إلى طاولتها، وقد أسندت مرفقيها ودفنت وجهها في يديها. أمامها كان صندوق المذياع الكبير، الذي كان يبث في هذا الوقت عادة إما موسيقى الفرقة النحاسية أو الخطب المسهَبة المستشيطة غضباً لأدولف هتلر. هذه المرة كان المذياع صامتاً، وسمع إيجر الشخير المنخفض للعجوز التي كانت تتنفس في يديها.

سألها: «ألستِ على ما يرام؟».

رفعت صاحبة البنسيون رأسها، ونظرت إليه. كان يمكن رؤية آثار أصابعها على وجهها، خطوطاً شاحبة، أخذ الدم يعود إليها شيئاً فشيئاً.

قالت له: «نحن في حرب».

سألها إيجر: «مَنْ قال هذا؟».

«إنه المذياع»، قالت العجوز ذلك، ورمت الجهاز بنظرة عدائية.

نظر إيجر إليها وهي تمد يديها خلف رأسها، وتفك بحركتين سريعتين كعكة شعرها. نزل شعر العجوز على رقبتها طويلاً وأصفر مثل ألياف الكتان. اهتز كتفاها قليلاً كما لو كانت على وشك الانتحاب، لكنها بعد ذلك وقفت، ومضت مارَّة به، ثم عبرت الممر نحو الخارج، حيث حيّتها قطةٌ قذرة، تمسّحت بقدميها لبعض الوقت قبل أن تختفيا معاً عند الناصية.

في صباح اليوم التالي انطلق إيجر في طريقه نحو الوادي ليتقدم إلى الخدمة العسكرية. لم يكن قراراً مبنياً على أية اعتبارات، فقد خطر له بشكل مفاجئ وببساطة تامة، كما لو كان نداءً من بعيد، أدرك إيجر أن عليه أن يتبعه. لقد سبق أن تم استدعاؤه عندما كان في السابعة عشر من عمره إلى فحص التجنيد الإجباري. لكن الاعتراض الذي قدمه كرانتزشتوكر حينذاك تم قبوله، وقد كانت حجته أنهم إذا انتزعوا من بين ذراعيه ربيبه الحبيب (الذي إلى جانب هذا لا بد أن يذكر كذلك أنه اليد العاملة الأكثر كفاءة في العائلة) كي يستخدموه وقوداً لنيرانهم ضد رعاع الطليان أو (وهو الأسوأ) ضد مفترسي الباجيت من الفرنسيين، يمكنهم أيضاً ببساطة بعد ذلك باسم الرب أن يحرقوا كلّ المزرعة تحت مؤخرته. كان إيجر في ذلك الوقت ممتناً في سره إلى صاحب المزرعة. لم يكن لديه شيء يخسره في حياته، لكن كان هناك على الأقل شيء ما ليكسبه. أما الآن فقد اختلف الأمر.

كان الطقس هادئاً إلى حد ما، فمضى في طريقه سيراً على

الأقدام. ظل يمشي طوال النهار، وقضى الليل في مستودع قديم للتبن، وانطلق ثانية قبل شروق الشمس. أصغى للأزيز المنتظم لأسلاك الهاتف التي نُصبت حديثاً بين الأعمدة الضيقة على طول الطريق. شاهدَ الجبال وهي تنبثق من الليل مع أشعة الشمس الأولى، ورغم أن هذا المشهد كان قد رآه آلاف المرات من قبل، إلا أنه أثّر به هذه المرة بطريقة غريبة. لم يستطع أن يتذكر أنه سبق أن شاهد في حياته شيئاً بهذا الجمال وفي الوقت ذاته بهذه الرهبة.

كانت إقامة إيجر قصيرة في القرية. «أنت أكبر سناً مما ينبغي، إضافة إلى أنك تعرج»، قال له الضابط الذي كان يجلس في الشمواه الذهبي على طاولة من طاولات النزل، ذاتِ غطاءٍ أبيض ومزيَّنةٍ بعلم صغير مرسومٍ عليه الصليب المعقوف، وقد كان الضابط والعمدة وامرأة كبيرةٌ في السن تضرب على الآلة الكاتبة يشكلون معاً لجنة الفحص.

قال إيجر: «أريد الذهاب إلى الحرب».

وسأله الظابط: «هل تصدق حقاً أنه يمكن للقوات المسلحة أن تجنّد شخصاً مثلك؟ ماذا تحسبنا إذن؟».

فقال له العمدة: «لا تكن غبياً أندرياس، وعُدْ ثانيةً إلى عملك»، وبهذا قضي الأمر.

خَتمتْ ضاربة الآلة الكاتبة على الملف ذي الورقة الوحيدة وعاد إيجر إلى العمل على التلفريكات.

كان قد مر أقل من أربع سنوات على هذه الحادثة، حينها في نوفمبر من سنة 1942 وقف إيجر أمام اللجنة ذاتها، لكنْ ليس بصفته متطوّعاً هذه المرة إنما بصفته مطلوباً للخدمة العسكرية. لم تكن لديه أية فكرة كيف أمكن للقوات المسلحة في نهاية الأمر أن تطلب للتجنيد فجأة شخصاً مثله، على أية حال بدا أنّ الأزمنة قد تغيّرت.

«سأله الضابط: «ماذا يمكنك أن تفعل؟».

أجاب إيجر: «لديّ معرفةٌ بالجبال، وأستطيع صنفرة الحبال الفولاذية وفتح حفر في الصخر!».

قال الضابط: «هذا جيد، هل سبق لك أن سمعت بالقوقاز؟».

«لا»، قال إيجر.

«ليست مشكلة»، قال الضابط، ثم أضاف: «أندرياس إيجر، بهذا أصرح أنّك مؤهل للالتحاق بالحرب. لقد تمّ تكليفك بمهمة تحرير الشرق المشرِّف!».

نظر إيجر عبر النافذة. بدأت تمطر في الخارج، قطرات ثقيلة أخذت تضرب الزجاج معتّمةً صالةَ المطعم. من طرف عينه رأى العمدة وهو ينحني ببطء على الطاولة، ويحدّق نحو الأسفل إلى سطحها.

قضى إيجر بالمجمل أكثر من ثماني سنوات في روسيا، من بينها ما يقل حتى عن شهرين على الجبهة، وما تبقى قضاه

في معسكرٍ لأسرى الحرب في مكان ما في السهوب الشمالية الشاسعة للبحر الأسود. رغم أن المهمة بدت واضحة إلى حد ما في البداية (فإلى جانب تحرير الشرق كانت تنصُّ أيضاً على تأمين مصادر النفط وكذلك على حماية منشآت استخراج النفط المزمع إنشاؤها وصيانتها)، إلا أنه بعد أيام قليلة فقط لم يعد قادراً على أن يقول بدِقّة لمَ هو هناك، ولصالح من أو ضد من كان يقاتل في الواقع. ففي تلك الليالي الشتائية القوقازية حالكة السواد، التي كانت فيها نيران المدافع فوق قمم الجبال عند الأفق تتفتح مثلَ أزهار متوهّجة، عاكسةً ضوءها على وجوه الجنود الخائفة أو اليائسة أو الجامدة، بدا أنّ أية فكرة حول جدوى أو عبث الحرب كانت تُدفن في مهدها. لم يكن إيجر يسأل عن أي شيء. كان ينفذ الأوامر، كان هذا كل شيء. علاوة على ذلك فقد رأى أنه كان من الممكن أن يصيبه ما هو أسوأ من ذلك بكثير. بعد أسابيع قليلة فقط من وصوله إلى الجبال قام رفيقان قليلا الكلام، ومن الواضح تماماً درايتهما بتضاريس المكان، بأخذه ليلاً إلى هضبةٍ صخرية ضيقة يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف متر تقريباً. كان عليه أن يبقى هناك، إلى أن تأتيه أوامر بالعودة، هكذا شرح له أحد رؤسائه، من جهة كي يقوم بحفر سلسلة من الحفر للمتفجرات، ومن جهة أخرى كي يقوم بتأمين الموقع الأمامي ويحميه عند الضرورة من السقوط. لم يعرف إيجر أي موقع أمامي هو المقصود ولا ماذا يعني أساساً موقع مثل هذا، لكنه لم يكن مستاء من مهمته. تركه

الرفيقان وحده مع العدّة، وخيمةٍ، وصندوقِ مؤونة، ووعدٍ بأن يعودا إليه بالإمدادات مرة في الأسبوع. رتّب إيجر مكانه على أحسن ما استطاع. في النهار كان يقوم بفتح عشرات الحفر في الصخر الذي كان عليه غالباً أن يكشط عنه قبل ذلك طبقة سميكة من الجليد. في الليل كان يستلقي في خيمته محاولاً أن ينام رغم البرد القارس. كانت تجهيزاته تضم كيس نوم، وغطاءَين، وحذاءه الشتوي المبطن بالفرو، والسترة المحشوّة السميكة التي يرتديها مشاة الجبل. إضافة إلى ذلك قام بنصب خيمته حتى منتصفها داخلَ تلّةٍ ثلجيةٍ متجمدةٍ، فقد كان ذلك حرياً بأن يصدّ عنه على الأقل شيئاً من الريح التي كانت تعصف غالباً بصوت عالٍ بحيث تطغى على هدير قاذفاتِ القنابل وصوتِ الانفجارات البعيدة للمدافع المضادة للطيران. لكنّ كل هذا لم يكن كافياً ليدفع البرد عنه. بدا الصقيع كأنه كان يتسرب من خلال جميع المسام إلى ما تحت الملابس وتحت الجلد، ناشباً مخالبه في كل نقطة من جسده. كان يعاقَبُ بالإعدام من يشعل النار، لكنْ حتى لو كان ذلك مسموحاً، فالهضبة كانت تقع في الأعلى، فوق حدود المنطقة الشجرية، ولا أثر في جميع أنحائها حتى لفرع صغير يمكن لإيجر أن يحرقه. أحياناً كان يشعل موقد البنزين الصغير الذي يسخّن بواسطته أغذيته المعلبة. لكن اللهب الضئيل بدا فقط وكأنه يسخر منه. كان يحرق أطراف أصابعه، ولكن ذلك يجعل بقية جسمه يتجمد أكثر. كانت الليالي ترهب إيجر، حيث

يتكوم على نفسه في كيس النوم، والبرد يبعث الدموع في عينيه. أحياناً كان يحلم، وكانت أحلاماً مضطربة، مليئةً بالألم وبوجوه شنيعة ؛ كانت تطلع من الثلج المتطاير في رؤياه وتطارده. استيقظ مرة من حلم كهذا، لأنه كان يظن أن شيئاً طرياً متحركاً قد زحف إلى الخيمة وأخذ يحدق به. «يا يسوع!»، نادى بصوت منخفض، وانتظر حتى هدأ قلبه مرة أخرى. خلع عنه كيس نومه وانسلَّ خارج الخيمة. كانت السماء بلا نجوم وحالكة السواد، وكان المكانُ بكامله غارقاً في الظلام وساكناً تماماً. جلس إيجر على حجر، وأخذ ينظر في العتمة. سمع قلبه يطرق مرة أخرى، وفي تلك اللحظة أدرك أنه لم يكن وحده.

لم يكن باستطاعته أن يقول من أين أتاه هذا الشعور، فهو لم يرَ سوى سواد الليل، ولم يسمع سوى ضربات قلبه، إلا أنه هناك في مكان ما استشعر بقرب كائن حي آخر. لم تكن لديه أية فكرة كم من الوقت مرّ عليه وهو جالس هكذا أمام خيمته يسترق السمع في العتمة، لكنّه قبل بزوغ شعاع الضوء الأول الشاحب على الجبال، كان قد عرف مكان ذلك الآخر: على الجانب الآخر من الوادي العميق الذي يحدّ الهضبة من جهة الغرب برز نتوء صخري من الجدار على بعد ثلاثين متراً تقريباً وبعرضٍ بالكاد يكفي ماعزاً ليقف عليه بثبات. على النتوء وقف جندي روسي، كانت هيأته الآن في الضوء المتزايد للصباح الباكر تزداد وضوحاً بسرعة. كان يقف هناك فقط، بجمود غير مفهوم، وينظر باتجاه

إيجر، الذي هو الآخر كان ما يزال جالساً على الحجر، ولم يقدِم على أية حركة.

كان الجندي شاباً، وله الوجه الحليبي لولدٍ من المدينة. بدت جبهته ناعمةً وبيضاء كالثلج، وعيناه مائلتين بطريقة غريبة. كان يحمل سلاحَه (بندقية قوقازية بدون حربة) معلّقاً بحزام على الكتفين، ويده اليمنى ترقد بهدوء فوق مقبض البندقية. كان الروسي ينظر إلى إيجر، وإيجر ينظر إلى الروسي، وحولهما لم يكن هناك سوى صمتُ صباحٍ شتائي قوقازي. لم يكن بمقدور إيجر بعد ذلك القول أيهما كان قد تحرك أولاً، على أية حال، سرت رجفة في جسد الجندي، ونهض إيجر. سحب الروسي يده عن مقبض البندقية ومسح بكمه فوق جبينه. بعد ذلك استدار، وبسرعة ولياقة ومن دون حتى أن يلتفت حوله، قفز عدة أمتار نحو الأعلى، حيث اختفى بين الصخور. وبقي إيجر لحظة واقفاً مكانه وهو يفكر. لقد أدرك، رغم أنه كان يواجه عدوه اللدود، أنّ إحساسه بالوحدة بعد اختفائه كان أعمق من أي وقت مضى.

في بداية الأمر كان الرفيقان يأتيان كل بضعة أيام حسب اتفاقهما، لإمداد مخزون الغذاء، وكي يحضرا عند الضرورة بعض الجوارب الصوفية، أو مثقباً جديداً للصخور، وأخباراً من الجبهة (كان ما يجري كرٌّ وفرّ، فهناك خسائر، ولكن هناك أيضاً مكاسب، بالمجمل لم يعرف أحد ماذا كان يجري بالضبط). لكنّ زياراتهما انقطعت بعد بضعة أسابيع، وفي نهايات ديسمبر

– وفق حسابات إيجر، الذي كان يرسم بعدد الأيام التي تمرّ خدوشاً بالمثقب على سطح جليدي، يجب أن يكون ذلك في اليوم الثاني من عطلة عيد الميلاد – انتابه للمرة الأولى شك بأنهما لن يأتيا أبداً بعد الآن. عندما مجدَّداً لم يحضر أحد بعد مرور أسبوع آخر. مضى في الأول من يناير عام 1943 في هبوب الثلج الكثيف عائداً إلى المعسكر. اتبع الطريق ذاته الذي كانوا قد ساروا فوقه قبل قرابة الشهرين، وانشرح صدره عندما سرعان ما لاحت قبالته الحمرة المألوفة للصليب المعقوف. لكن لم تمض ثانيتان حتى اتضح له دفعة واحدة أن الأعلام المغروزة في الأرض هناك لتعيين حدود المعسكر لم تكن أبداً أعلام الصليب المعقوف، إنما رايات جمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية. في تلك اللحظة دان إيجر بحياته لحضور الذهن لا لشيء سواه، والذي بفضله نزع بندقيته عن ظهره حيث هو، ورمى بها بعيداً عنه إلى أبعد ما استطاع. رأى سلاحه وهو يختفي بصوت مكتوم في الثلج، وما هي إلا طرفة عين حتى سمع صراخ الحراس الذين اندفعوا نحوه راكضين. رفع يديه، ونزل على ركبتيه، وأخفض رأسه. أحس بضربة على قفا رقبته، ووقع نحو الأمام وهو يسمع الأصوات الروسية العميقة تأتيه من فوقه كما لو أنها أصوات غير مفهومة من عالم آخر.

جثم إيجر سويّة مع أسيرَيْن آخرَيْن مدة يومين في صندوق خشبيّ سُمّرت أخشابه معاً كيفما اتفق، وسُدّتْ شقوقه باللباد،

يبلغ كلٌّ من طولِه وعرضِه متراً ونصف المتر تقريباً، ولا يتجاوز ارتفاعه المتر. كان معظمَ الوقت ينظر إلى الخارج عبر شقٍّ محاولاً أن يستشفّ من خلال تحركاتهم هناك أيّ إشارة تدل على خطط الروس وعلى مستقبله هو. أخيراً في اليوم الثالث وعندما سُحبت المسامير من الخشب محدثةً صريراً، وهبط أحد الجدران نحو الخارج، وخز ضوء الشتاء عينيه بسطوع شديد حتى أنه خشي ألّا يتمكن من فتحهما ثانية. لكنه تمكّن من ذلك بعد قليل، إلا أنّ شعوره بالضوء الواخز، الذي جعل حتّى لياليه تبدو له وكأنّها مضاءة بنور ساطع، بقي ملازماً له لفترة طويلة بعد نهاية أسره في الحرب، ولم يختف بشكل نهائي إلّا بعد مضي سنوات عديدة على عودته إلى وطنه. استغرق نقلهم إلى معسكرٍ في فوروشيلوفغراد ستة أيام، قضاها إيجر وسط كومة من الأسرى المساقين معاً في صندوق شاحنةٍ مفتوح. كانت رحلةً فظيعة، تنقّلوا فيها طوال النهارات الباردة والليالي المتجمدة تحت سماء مظلمة مزقتها نيران المدافع عبر حقول الثلج المفتوحة الواسعة، التي كانت تبرز من أخاديدها أطرافُ بشرٍ وأحصنةٍ متيبّسةٍ من البرد. جلس إيجر على حافة الشاحنة الخلفية، وشاهد الصلبان الخشبية التي أحاطت بالطريق، والتي يصعب إحصاؤها. فكر بالمجلة التي كانت ماري كثيراً ما تقرأ منها، وبكمْ هو قليلٌ ما وُصِف فيها من مناظر طبيعية شتائية مقارنةً بهذا العالم الجليدي الجريح.

أحد الأسرى، وكان رجلاً قصيراً ممتلئاً، حاول أن يردّ البرد عنه بقطعة مهترئة من غطاء حصان، قال إنّ الصلبان، ليست أبداً بهذا الحزن الذي تبدو عليه، فهي ببساطة ليست إلا لوحات طرق، تدلّ على الطريق المباشر نحو السماء. كان اسم الرجل هيلموت مويداشل، وكان يحب الضحك. كان يضحك على الثلج الذي يضرب وجوههم، ويضحك على حواف الخبز القاسية كالطوب التي كانوا يفرغونها لهم من الكيس على أرضية صندوق الشاحنة. الأجدى استخدام هذا الخبز في بناء منازل لائقة، قال ذلك، وضحك بصوتٍ كان عالياً لدرجة أن حارسيْهم الروسيين أخذا يضحكان معه. أحياناً كان يلوّح بيده للنساء العجائز اللواتي كنّ يفتّشن الجثث المغطاة بالثلج بحثاً عن قطعِ ملابس تصلح للاستخدام أو أغذية. كان يقول، إنه عندما يذهب المرء إلى الجحيم عليه أن يضحك مع الشياطين، هذا لا يكلف شيئاً، ويجعل الأمر كله محتمَلاً أكثر.

كان هيلموت مويداشل الأول من سلسلةٍ طويلةٍ من الذين شهدَ إيجر موتَهم في فوروشيلوفغراد. في ليلةِ وصولهم انتابته حمى شديدة، وسُمعت طوال ساعات في الثكنة صرخاتُه المخنوقةُ تحت قطعةٍ من غطاءٍ كان يتغطى بها. في صباح اليوم التالي عُثرَ عليه ميتاً في إحدى الزوايا، نصف عارٍ، مكوَّماً على نفسه، وكلتا قبضتيه تضغطان على صدغيه.

بعد أسابيع قليلة توقف إيجر عن عدّ الموتى الذين كانوا

يُدفَنون في غابة صغيرة من أشجار البتولا خلف المعسكر. كان الموت ينتمي للحياة، مثلما ينتمي العفن للخبز. الموت كان الحمى. وكان الجوع. كان شقاً في جدار الثكنة، تصفر فيه ريح الشتاء.

تمّ ضمُّ إيجر إلى مجموعةِ عملٍ من قرابة مئة شخص. كانوا يعملون في الغابات أو في السهوب، يقطعون الحطب، أو يبنون أسواراً منخفضة من حجارة الحقول، أو يساعدون في جني البطاطا، أو يدفنون موتى الليلة السابقة. في الشتاء كان ينام مع مئتين تقريباً من رجالٍ آخرين في الثكنة. وما إن تصبح درجات الحرارة مواتية، حتى يخرج ليستلقي فوق كومة قش. منذ أشعل أحدهم الضوء الكهربائي سهواً في إحدى الليالي الدافئة، وتقاطرت من السقف بعد ذلك آلافٌ من حشرات البق، صار يفضّل النوم في الهواء الطلق.

سمع إيجر بخبرِ نهايةِ الحرب في واحدةٍ من دورات المياه المشتركة، حيث كان يجلس على لوح خشبي فوق حفرة تصريف، مطوَّقاً بسربٍ من ذبابٍ يلمع بلون ضارب للخضرة. حين فُتِحَ الباب فجأة على مصراعيه، ومدّ أحد الروس رأسه إلى الداخل وزمجر «هتلر انتهى! هتلر انتهى!». بقي إيجر جالساً بصمت من دون أن يرد، فصفق الروسيّ الباب معيداً إغلاقه، ومضى يضحك. في الخارج بقي ضحكه وهو يخفت مسموعاً لبعض الوقت، قبل أن ينطلق عويل صفارات النداء للاجتماع.

لم تكن قد مرت ثلاثة أسابيع حتى كان إيجر قد نسي نشوة الحارس والأمل الذي كان قد بُعث معه. فحقيقةُ أن الحربَ كانت قد انتهت، صارَت أمراً واقعاً، إلا أن ذلك لم يكن له أية تأثيرات ملموسة على حياة المعسكر. بقي العمل هو ذاته، وحساء الدخن كان أخف قواماً من قبل، والذباب استمر في الدوران حول عوارض المراحيض غيرَ متأثرٍ بما جرى. إضافة لذلك فقد اعتقد كثير من الأسرى أنّ نهاية الحرب قد تكون مؤقتة فقط. ربما يكون هتلر بالفعل انتهى، كانوا يحاججون، لكن وراء كل أخرق هناك دائماً أخرق آخر، أسوأ بكثير، يقف على أهبة الاستعداد، وما هي في النهاية إلا مسألة وقت، حتى يبدأ ثانية كل شيء من جديد.

في ليلة شتائية معتدلة على غير العادة جلس إيجر أمام الثكنة، وقد لفّ نفسه ببطانيته، وأخذ يكتب رسالة إلى زوجته المتوفاة ماري. كان قد عثر أثناء عمليات إزالة المخلفات في قرية محروقة على ورقة سليمة تقريباً وعقب قلم رصاص. أخذ يكتب ببطء وبأحرف كبيرة ومرتعشة:

«حبيبتي ماري

أكتب إليك من روسيا. الأمور أبداً ليست بهذا السوء هنا. يوجد عمل، ولدينا ما نأكله، ولأنه لا يوجد جبال هنا، فالسماء أوسع مما يمكن للمرء رؤيته. لكن البرد هنا شديد. إنه برد آخر غير الذي في ديارنا. لو أنّ لديَّ كيساً صغيراً واحداً فقط مشرباً بالبترول، كما كان لدي الكثير منها فيما مضى، لكان الأمر حقاً

على ما يرام. لكنني لا أريد أن أتذمَّر. فهناك العديد ممن يرقدون متيبسين وباردين في الثلج، بينما أنا ما أزال أشاهد النجوم. ربما ترين أنت النجوم أيضاً. للأسف عليَّ الآن أن أتوقف هنا. إنني بطيء في الكتابة وخلف التلال بدأ يطلع الضوء.

حبيبك إيجر

طوى إيجر الرسالة حتى أخذت أصغر حجم ممكن، ودفنها في الأرض عند قدميه، ثم تناول بطانيته، وعاد إلى الثكنة.

استغرق الأمر ست سنوات أخرى تقريباً إلى أن انتهت إقامة إيجر في روسيا. لم يكن هناك أي إعلان مسبقٍ عن إخلاء السبيل، لكنْ في صباحٍ باكرٍ من صيف عام 1951 تمّ جمعُ الأسرى في الساحة الأماميّة للثكنات، حيث توجّب عليهم أن يتجرّدوا من ملابسهم ويكدّسوها فوق بعضها في كومة كبيرة تفوح منها رائحة نتنة. صُبَ البنزين فوق الكومة، وأضرمت النار بها، وبينما كان الرجال يحدقون في اللهب، بدا على وجوههم الخوف من إعدامٍ فوريٍ بالرصاص، أو مما هو أسوأ حتى من ذلك. لكن الروس أخذوا يضحكون، ويتحدثون بصخب جميعاً في آن واحد، وعندما أمسك أحدهم أسيراً من كتفه، وضمه إليه، وقام مع هذا الشبح العاري النحيل برقصةٍ ثنائيةٍ مضحكة حول النار، بدأ يتضح للأغلبية أن هذا الصباحَ كان صباحَ خيرٍ.

مجهَّزين بملابس نظيفة، وبقطعة خبزٍ لكلٍّ منهم، غادر الرجال المعسكر في الساعة ذاتها لينطلقوا في المسير نحو أقرب محطة قطار. اندسَّ إيجر في واحد من الصفوف الأخيرة. أمامه مباشرة

مشى شاب بعينين كبيرتين تنظران بشيء من الرعب طوال الوقت، وأخذ قبل أن يتجاوز الأمتار الأولى يلتهم خبزه بنهَم. عندما ابتلع القطعة الأخيرة استدار مرة أخرى وألقى نظرة على المعسكر الذي صار خلفهم على بعد كيلومترات وبالكاد كان يمكن تمييزه في وميض الشمس. ابتسم باستهزاء، وفتح فمه كي يقول شيئاً، إلا أنّ ما خرج لم يكن إلا صوتاً مختنقاً، ثم بدأ يبكي. أخذ ينوح وينتحب، وسال دمعه ومخاطه بخطوط عريضة على خدَّيه المتسخَيْن. أحد الرجال المسنّين، وكان طويل القامة، بشعر غزير أبيض، ووجه تعلوه الخدوش، تقدّم من الصبي، وضع ذراعه حول كتفيه المرتجفتين وقال له إن عليه أن يسدي له معروفاً، ويتوقف عن هذا العويل، لأن العويل، أولاً لا يقدم لصاحبه شخصياً أكثر من ياقة قميص مبللة، وثانياً لأن النواح مُعْدٍ مثل حمّى الخيل والطاعون معاً، وأنه لا رغبة لديه بقضاء طريق العودة، الذي يبلغ بضعة آلاف من الكيلومترات، وسط مجموعة من نسوة ثرثارات نائحات. فوق ذلك، فإن الأكثرَ فطنةً هو أن يوفّر دموعه إلى حين العودة للديار، هناك حيث يوجد ما يكفي من الأسباب للعويل. توقف الشاب عن البكاء، وإيجر، الذي كان يمشي على بعد خطوتين منه، ظلّ يسمع لوقت طويل الأصوات الجافّة التي يصدرها عندما كان يبتلع دموعه وآخرَ ما تبقى من فتات الخبز.

***

في البداية، بعد عودته إلى الديار، سكن إيجر في حجرة خشبية خلف بناء المدرسة الذي تم إنشاؤه حديثاً، وقد تخلت البلدية له عن الغرفة مدعومةً بمشاعر الإحسان لدى العمدة. لم يعد العمدة نازياً الآن، فبدل أعلام الصليب المعقوف، عادت أزهار الغرنوقي لتتدلى من النوافذ نحو الخارج، أشياء أخرى في القرية كانت كذلك قد تغيرت كثيراً. أصبحت الشوارع أعرض، والسيارات تمر مطقطقة عدة مرات في اليوم وبفواصل قصيرةٍ غالباً، وغيلان الديزل التي تطلق الدخان والرائحة النتنة من الشاحنات القديمة كانت آخذة بالتناقص. كانت سياراتٌ تلمع بكل الألوان تأتي قادمة بسرعة الريح عبر مدخل الوادي، وتبصق في ساحة القرية أشخاصاً يأتون في نزهة أو للتجول سيراً على الأقدام أو للتزلج على الجليد. قام كثيرٌ من الفلاحين بتأجير غرفِ الضيوفِ، ومن معظم الحظائر اختفت الدجاجاتُ والخنازير. بدلاً منها صارت هناك الآن في الزرائب زلاجاتٌ وعصيّ تزلج، وفاحت رائحة الشمع بدلاً من رائحة براز الدجاج وروث الخنازير. صار لنزل

الشمواه الذهبي منافسون. كل يوم كان صاحب الشمواه يبدي امتعاضه مجدداً من مطعم ميترهوفر الذي لم يكن قد مر على بنائه إلا فترة وجيزة، والذي كان يزهو على الجانب الآخر بواجهته المطليةِ بالأخضر الفاتح ولوحةِ ترحيبٍ براقةٍ فوق بوابة المدخل. كان يكره ميترهوفر العجوز. لم يكن يريد أن يستوعب كيف أمكن على حين غرة أن يخطر في بال مربّي بقر أن يركن جانباً مذراتَه، ويؤوي لديه سيّاحاً بدل قطعان الماشية. «الفلاح فلاح ولن يصبح في حياته صاحب حانة!»، كان يقول، لكنه في سره كان لا يملك إلا أن يعترف أن المنافسة لم تلحق الضرر بشغله فقط، بل على العكس كانت قد أنعشته. في النهاية عندما توفي في أواخر الستينات عجوزاً مضطرب الذهن، كان بمقدوره أن يورث ابنته الوحيدة إلى جانب الشمواه الذهبي ثلاثةَ مطاعم أخرى، وعدةَ هكتاراتٍ من الأراضي، وصالةَ بولينج تحت حظائر ما كانت سابقاً مزرعة لويدولت، وأسهماً في اثنين من التيلفريكات ذات الكرسي المعلّق. الأمر الذي جعل فجأة هذه المرأة غيرَ المتزوجة وصعبة المراس إلى حد ما، ورغم عمرها الذي جاوز الأربعين بسنوات، واحدةً من أكثر النساء المطموعِ في الزواج بهن في الوادي.

تلقى إيجر هذه التغييرات بدهشة صامتة. في الليل كان يصله الصرير المعدني للقوائم المعدنية على طول المنحدرات التي أصبحت الآن تسمى مسارات التزلج، وفي الصباح كانت توقظه

غالباً جلبة تلاميذ المدرسة خلف الجدار القائم عند رأس سريره، والتي كانت تنقطع فجأة ما إن يدخل المعلم غرفة الصف. تذكّرَ طفولتَه هو، سنوات دراسته القليلة التي كانت تمتد في ذلك الزمن أمامه بلا نهاية، والتي تبدو له الآن سريعة وخاطفة مثل طرفة عين. بالعموم كان الزمن يحيره. كان الماضي يبدو وكأنه يتعرج في جميع الاتجاهات، وفي الذاكرة يختلط سير الوقائع أو تستمر في إعادة تشكلها ونيل أهميتها بطريقة مختلفة كل مرة. لقد قضى في روسيا من الوقت أكثر بكثير مما قضاه مع ماري، ولكنّ سنواتِه في القوقاز وفي فوروشيلوفغراد بدت له بالكاد تكون أطول من الأيام الأخيرة معها. الوقت الذي قضاه في العمل ببناء التيلفريك كان ينكمش عند استعادة الماضي حتى لا يتجاوز في طوله موسماً واحداً، بينما يبدو له أنه قضى نصف عمره معلقاً على عارضة نير الثور، أنظاره في الأرض ومؤخرته الصغيرة البيضاء ترتفع نحو سماء المساء.

بعد عودته ببضعة أسابيع التقى إيجر بكرانتزشتوكر العجوز. كان يجلس على مقعد متخلخل لحلب الماشية أمام مزرعته. ألقى إيجر التحية عليه أثناء مروره به. رفع كرانتزشتوكر رأسه ببطء، واستغرق الأمر بعضَ الوقت حتى تعرّف إلى إيجر.

«إنه أنت»، قال بصوت أجش لرجل عجوز. «أنت، لا أحد سواك!».

بقي إيجر واقفاً ينظر إلى العجوز، كان جالساً هناك منكّساً، ومن عينين صفراوَين كان ينظر نحو الأعلى إليه. كانت يداه على ركبتيه، نحيلتين مثل أغصان الموقد الجافة، وكان فمه نصف مفتوح، وبدا خالياً تماماً من الأسنان. كان إيجر قد سمع أن اثنين من أبنائه لم يرجعا من الحرب، إثر ذلك حاول أن يشنق نفسه بإطار باب المخزن. الخشب الهش لم يتحمل وزنه، فنجا كرانتزشتوكر. منذ ذلك الحين يقضي المزارع العجوز وقته في توقٍ إلى الموت. كان يرى الموت جاثماً في كل مكان، وكلّ مساء يكون متأكداً أنه مع العتمة ستهبط عليه أيضاً الراحةُ الأبدية. لكنه في اليوم التالي كان يستيقظ مجدداً، كلَّ مرة أشدَّ مرضاً، وأكثرَ تكدّراً، ومتآكلاً من شدة توقه أكثر من قبل.

«تعال إلي لنر كيف تبدو!»، قال له مادّاً رأسه نحو الأمام مثل دجاجة. تقدم إيجر خطوة نحوه. كان خدا العجوز غائرَيْن، وشعره الذي كان ذات يوم أسود لامعاً يتدلى من جمجمته أبيضَ ورقيقاً كخيوط العنكبوت.

قال له: «ستحل نهايتي عما قريب، الموت لا يغفل أحداً. كل يوم يصلني صوته من ناصية الشارع وهو في طريقه إليّ، ولكنْ في كل مرة يكون ذلك مجرد ماشيةِ الجيران أو كلباً أو خيال أحد الأرواح المتسللة!».

جمد إيجر في مكانه. للحظة انتابه شعور أنه عاد طفلاً، وخاف أن ينهض العجوز ويعلو شاهقاً مثل جبل.

«واليوم كان ذلك كما اتضح هو أنت»، تابع المزارع. «شخص مثلك يمر عابراً عند الناصية، وآخرون ما عادوا يأتون إلى أي مكان. هكذا هو الأمر مع العدالة. كنتُ ذات يوم كرانتزشتوكر، والآن انظر إليّ، إلى ما أصبحت عليه: كومة عظام بالية، بقي فيها من الحياة فقط ما يحولُ دون أن تتفتت بعد قليل متحولةً إلى غبار. مشيتُ مستقيماً طوال حياتي، وانحنيت لله فقط، لا لأحد سواه. وكيف يرد الله لي ذلك؟ بأن يأخذ مني اثنين من أبنائي، منتزعاً بذلك اللحم والدم عن جسمي. وحيث أنّه لم يكتفِ بعد، ولأنه لم يعصر بعدُ آخر قطرةٍ من حياة فلاحٍ عجوزٍ مثلي، فإنه يتركني كل يوم من الصباح الباكر حتى المساء جالساً أمام مزرعتي في انتظار الموت. وهأنذا الآن جالسٌ حتى تتقرَّح مؤخرتي، لكنّ الأشياء الوحيدة التي تمرّ من هنا هي بعض الحيوانات وبعض الأخيلة وأنت، أنت من بين كل الناس!».

نظر كرانتزشتوكر نحو الأسفل إلى يديه، وإلى أصابعه النحيلة المبقّعة. كان يتنفس بصعوبة وبحشرجة منخفضة. فجأة رفع رأسه. وفي الوقت نفسه أطلق يداً بسرعة من حِجره وقبض بها على ساعد إيجر.

صرخ بصوت يرتجف من الإنفعال: «الآن تستطيع أن تفعلها! الآن تستطيع أن تضربني! اضربني، هل تسمع؟ أرجوك أن تضربني. لكن اضربني، أرجوك، حتى الموت!».

أحس إيجر بأصابع العجوز وهي تنشب مخالبها في ذراعه،

وأحس برعب جليدي في قلبه. انتزع نفسه، وعاد خطوة إلى الوراء. أخفض كرانتزشتوكر يده، وجلس هناك صامتاً، موجِّهاً نظره مرة أخرى نحو الأرض. استدار إيجر وذهب.

بينما كان يمشي على طول الشارع الذي ينتهي خلف القرية بمسافة قصيرة، تملّكه إحساس غريب بالخلاء في معدته. عميقاً في داخله كان يشعر بالأسف حيال الفلاح العجوز. فكر بمقعدِ حلْبِ الماشية، وتمنى لكرانتزشتوكر أن يحظى بكرسيّ وبطانية دافئة، وفي الوقت نفسه تمنى له أن يتمكن من نيل الموت.

تابع طريقه عبر الدرب الضيّقِ صعوداً إلى الأعلى حتى بيشلرزينكه. هنا في الأعلى كانت الأرض طرية والعشب داكناً وقصيراً. على نهايات الأنصال كانت ترتعش قطرات الماء جاعلةً المرْجَ كلّه يتلألأ كما لو كان مرصَّعاً بخرزات زجاجية. تعجب إيجر من هذه القطرات الضئيلة المرتعشة التي تعلق بأنصال العشب بعناد هكذا، فقط كي تسقط في النهاية وتتسرَّب إلى داخل الأرض أو كي تتبخر في الهواء إلى لاشيء.

لقد مرت سنوات عديدة لاحقاً إلى أن وجد كرانتزشتوفر خلاصه في يوم خريفي نهايةَ الستينات عندما كان يجلس مثل خيالٍ في غرفته مستمعاً إلى المذياع. وكي يتمكن من فهم شيء ما، أياً كان، قام بمدّ جذعه بعيداً فوق الطاولة، وألصق أذنه اليسرى بمكبر الصوت. عندما أعلن المذيع عن بدء بثِّ حفلةٍ

موسيقية لفرقة نحاسية، أطلق العجوز صرخةً بشكلٍ مفاجئ، وضرب بقبضته على صدره عدة مرات، ومصحوباً بالإيقاع النحاسي انزلق في النهاية عن كرسيه متخشّباً وميتاً.

أثناء الجنازة انهمرت الأمطار بشدة، وفوق الشارع الغارقِ في وحلٍ بعمقِ الكاحل كان تقدّمُ موكبِ الجنازة بطيئاً. مشى إيجر في الصفِ الخلفيِّ، وكان هو نفسه في ذلك الوقت قد تجاوز الستين من عمره. فكر بالمزارع الذي قضى عمره وهو يطرد السعادة بالعصي بعيداً عنه. عندما مروا تحت المطر الغزير بالمطعم الصغير عندما كان سابقاً مزرعةَ أخماندل انبعث عالياً صوتُ ضحكٍ بصفاءٍ عجيب. كانت إحدى النوافذ منفرجةً قليلاً وتومض بضوء ساطع. في الغرفة كان الابن الصغير لصاحب المطعم يجلس أمام تلفاز ضخم، ووجهه قريب جداً من شاشته. على جبهته كان يومضُ الضوء المنعكس من صور التلفاز، إحدى يديه تطبق على الهوائي، بينما راح من الضحك يضرب بيده الأخرى على فخذيه. كان يضحك بشدة، حتى أن إيجر عبرَ ستار المطر تمكن من رؤية لعابه وهو يتطاير نحو الشاشة. شعر برغبة في أن يبقى، ويسند جبهته على النافذة، ويشارك في الضحك. إلا أن موكب الدفن كان يستأنف سيره، مظلماً وصامتاً. رأى إيجر أمامه الأكتاف المنحنية للمشيّعين، ينحدر المطر عنها مثل جداول رفيعة. في المقدمة كانت عربة النعش تتأرجح مثل سفينة في أول الغسق، بينما كان ضحكُ الولدِ خلفَهم يخفتُ شيئاً فشيئاً.

رغم أن إيجر كان خلال حياته قد فكر بعض الشيء بهذا الأمر، إلا أنه لم يقتنِ تلفازاً أبداً. غالباً كانت تعوزه النقودُ أو المكان أو الوقت، وبالمجمل بدا له أنه يفتقد لجميع المقوّمات الضرورية لاستثمارٍ من هذا النوع. فعلى سبيل المثال، كانت بالكاد تتوفر لديه القدرة على المواظبة، التي تُمكّنُ معظمَ الآخرين من التحديق بالوهج لساعات طويلة، الأمر الذي كان يعتقد في سرّه أن بإمكانه مع مرور الوقت أن يُضعِف بصرَ المرءِ ويبلّدَ ذهنه. ومع ذلك فقد منحه التلفاز لحظتين لا تُنسيان، كان لاحقاً يعاود نبشهما من أعماق ذكرياته، ويستحضرهما بذهول ممتع. الأولى منهما كان قد عاشها في إحدى الأمسيات في الغرفة الخلفية للشمواه الذهبي، والتي كان يوجد فيها منذ بعض الوقت تلفاز جديد كل الجدة من نوع إيمبيريـال. لم يكن إيجر قد دخل الحانة منذ أشهر، وبناء عليه فقد دُهشَ عندما داهمته لدى دخوله، بدلاً من الدمدمة المعتادة لصالة المطعمِ، أصواتُ التلفاز النحاسيةُ إلى حدٍّ ما على خلفيةٍ من خشخشة منخفضة. اتجه نحو آخر المكان حيث كان هناك سبعةُ أشخاص أو ثمانيةٌ يجلسون متفرقين على الطاولات، وأخذ يحملق مشدوهاً في الجهاز الذي بحجم خزانة. لأول مرة في حياته كان إيجر يرى صور التلفاز عن قرب. بطبيعيّةٍ ساحرةٍ كانت تتحرك أمام عينيه حاملةً إلى الغرفةِ الخلفيةِ الخانقةِ للشمواه الذهبي عالَماً لم يكنْ لديه حتى ذلك الوقت أدنى تصوّرٍ عنه. رأى بيوتاً ضيقة تشمخ بارتفاعها، كانت

أسقفها تعلو في السماء مثل نوازل جليدية معكوسة. من النوافذ كانت تثلج قصاصات من الورق، وكان الناس في الشوارع يضحكون، ويصرخون، ويرمون قبعاتهم في الهواء، وبدا عموماً أنهم قد جُنّوا من الفرح. قبل أن يتمكن إيجر من استيعاب كل هذا، تفتّتت الصورة كما لو كان ذلك بفعل انفجار عديم الصوت، لكنها ما لبثت خلال ثانية أن تجمعت مرة أخرى لتشكل مشهداً جديداً تماماً. على بعض المقاعد الخشبية جلس رجال بقمصان قصيرة الأكمام وبدلاتِ عمّال، يراقبون فتاةً داكنةَ البشرة في العاشرة من عمرها تقريباً، وهي تجثو على ركبتيها في قفصٍ وتداعب لبدةَ أسدٍ متمدد أمامها. تثاءب الحيوان وكان بإمكان المرء رؤية فمه الذي تسيل فيه خيوط اللعاب. صفّق الجمهور. التصقت الفتاة بجسم الأسد، وبدت لوهلة وكأنها ستختفي في اللبدة. ضحك إيجر. لقد فعل ذلك حقيقة بسبب الارتباك، إذ لم تكن لديه أية فكرة كيف ينبغي على المرء أن يتصرف أمام التلفاز في حضور الآخرين. خجل من جهله. بدا لنفسه مثل طفل يشاهد أنشطة الكبار غير المفهومة: كل شيء كان مثيراً للاهتمام بطريقة ما، لكنْ لا شيء من هذا بدا وكأنّه يعنيه بشكل شخصي.

لكنه بعد ذلك رأى شيئاً، مسَّه في أعماق قلبه. كانت امرأة شابة تنزل من طائرة. لم تكن مجرد امرأة تنزل الدرج الضيق هناك إلى ممر الطائرات، كانت أجمل مخلوق رآه إيجر في حياته. كان اسمها غريس كيلي، اسم كان له وقع غريب وغير مألوف

لمسمعه، ومع ذلك كان يبدو له وكأنه الوحيدُ المناسب. كانت ترتدي معطفاً قصيراً وتلوِّح لجمهرة من الناس المحتشدين الذين تجمعوا في المطار. هرعت حفنة من الصحفيين إلى هناك، وبينما كانت تجيب على أسئلتهم اللاهثة كانت أشعة الشمس تسيل على شعرها الأشقر وعنقها الأهيف الناعم. أصابت إيجر القشعريرة عندما خطر له أن هذا الشعر وهذا العنق لم يكونا محض خيال، بل ربما هناك، في مكان ما من هذا العالم، أحدٌ ما كان قد لمسهما بأصابعه أو ربما حتى قد داعبهما بيده كلها. لوّحت غريس كيلي مرة ثانية وهي تضحك أثناء ذلك فاغرة فمها الداكن. نهض إيجر وغادر النزل. جال في شوارع القرية بلا هدف لبعض الوقت، قبل أن يجلس في النهاية على الدرج أمام الكنيسة. نظر إلى الأرض التي داستها أجيال لا تُحصى من الخاطئين، وأخذ ينتظر أن يهدأ قلبه ثانية. ابتسامة غريس كيلي والحزن الذي في عينيها كانا قد هيَّجا روحه، ولم يفهم ما الذي كان يعتمل في داخله. جلس على هذا النحو هناك قبل أن يشعر أخيراً بعد حلول الظلام بالبرد الذي حلّ، ويذهب إلى البيت.

كان هذا في نهايات الخمسينيات. وكان قد مضى الكثير من الوقت على ذلك، تحديداً في صيف عام 1969، حين عاش إيجر وإنْ على نحوٍ مختلفٍ تماماً حادثةً أخرى، لا تُنسى، مع التلفاز، الذي كان في ذلك الوقت قد احتل صدارةَ معظمِ البيوت، وصار المغزى الرئيسي للمجالس العائلية. هذه المرة كان يجلس سوية

مع ما يقارب مئة وخمسين من سكان القرية الآخرين في قاعة التجمعِ في مبنى الرعية الجديدِ، يشاهد شابَّين أمريكيين وهما يطآن القمر للمرة الأولى. خلال البث كله تقريباً ساد هدوء متوتر في القاعة، لكن ما إن وضع نيل آرمسترونج قدمه على الأرض الغبارية للقمر حتى انفجر الجميع مهللين، وعلى الأقل لبضع لحظات كان كما لو أن حِملاً ما قد انزاح عن أكتاف الفلاحين. بعد ذلك كان هناك بيرة مجانية للكبار، وعصير ودونات للصغار، وتحدّث عضوٌ في مجلس الرعية بكلمة قصيرة عن الجهود الجبارة التي جعلت أعجوبة كهذه ممكنة الحدوث، والتي على الأرجح ستقود البشريةَ من يدري إلى أين. صفق إيجر استحساناً مثل الآخرين جميعاً. أمامهم في التلفاز استمرت حركة خياليْ الشبحين الأمريكيين، اللذين في هذه اللحظة بالضبط وعلى نحو عصيّ على الإدراك كانا فوق رؤوسهم في الأعلى يتمشيان فوق سطح القمر. في هذه الأثناء هنا على الأرض في الأسفل، في القاعة المعتمة لمبنى الرعية الذي ما تزال تفوح منه رائحة الإسمنت المستخدَم حديثاً، شعر إيجر بطريقة مبهَمة أنه قريب من سكان القرية وملتحم بهم.

في اليوم ذاته الذي عاد فيه من روسيا اتجه إيجر إلى معسكر شركة «بيترمان وأبناؤه». لو أنه سأل أحداً ما قبل ذلك، لكان وفّر على نفسه هذا المشوار. كانت الأكواخ قد اختفت. والمعسكر كان قد تم تفكيكه. هنا وهناك كانت بقعة من خرسانة أو دعامة

خشبية نما فوقها العشب ما تزال تشير إلى أن هناك بشراً كانوا يوماً ما قد عملوا وعاشوا هنا. في المكان الذي كان الوكيل يجلس فيه خلف مكتبه تفتحت أزهار بيضاء صغيرة.

في القرية أُخبِرَ إيجر أنّ الشركة أشهرت إفلاسها بعد نهاية الحرب مباشرة. قبل ذلك بسنة كان قد تمّ سحب آخر من تبقّى من العمال، إذ كانت الشركة قد استجابت لاستغاثة الوطن اليائسة في ذلك الوقت، وتحولت من إنتاج العوارض الفولاذية والرافعات مزدوجة الكابل إلى إنتاج الأسلحة. بيترمان العجوز، الرجل الوطني المتحمس، الذي كان في الحرب العالمية الأولى قد ترك ساعداً وشظية من وجنته اليمنى في خندقٍ على الجبهة الغربية، توجّه بشكل خاص إلى صناعة سبطاناتٍ للبنادق القصيرة ومفاصل كروية لمدافع الهجوم. المفاصل كانت على ما يرام، لكن جزءاً من مخازن البنادق كان يصاب باعوجاج بتأثير الحرارة العالية، الأمر الذي أدى إلى عدة حوادث فظيعة على الجبهة، وأوصل بيترمان العجوز في النهاية إلى القناعة بأن له دوراً لا يستهان به في خسارة الحرب. أطلق النار على نفسه في غابة صغيرة خلف منزله، مستخدماً، إيثاراً للسلامة، بندقيةَ صيدٍ قديمة تعود لوالده. عندما وجد الخفير الحراجي جثته، تحت شجرة تفاح حرجي، مشوهة، لمعتْ باتجاهه من داخلِ الجمجمةِ المهشَّمةِ صفيحةٌ معدنيةٌ حفر عليها تاريخ 1917.11.23.

كانت العربات المعلقة الآن تبنيها وتسيّرها شركات أخرى،

لكن أينما كان إيجر يقدم نفسه، كانوا يصرفونه. لم يعد الشخصَ المناسب، هذا ما كان يقال له. السنوات القليلة بعد الحرب كانت كافية لتجاوز الكثير من مجريات العمل القديمة، ولهذا لم يعد هناك للأسف مكان لشخص مثله في عالم هندسة المواصلات المتطورة.

في البيت كان إيجر يجلس مساء على حافة السرير ويراقب يديه. ثقيلتين وداكنتين في حِجره مثل تراب المستنقعات. كان الجلد سميكاً ومتغضناً مثل جلد حيوان. السنوات العديدة بين الصخور وفي الغابات خلفت ندوباً وراءها، وكل واحدة من هذه الندوب كانت ستحكي حكايةً عن سوء الحظ أو الجهد أو النجاح لو أمكن لإيجر أن يتذكر قصتها. منذ الليلة التي حفر فيها في الثلج بحثاً عن ماري صارت أظافر يديه متقصّفة وتنشب تحت الحواف. كان ظفر أحد إبهاميه أسود اللون وفي منتصفه انخماص. رفع إيجر يديه قريباً من وجهه، وأخذ يراقب الجلد على ظهر يديه وقد بدا في بعض المواضع مثل الكتان المجعَّد. شاهد مسامير اللحم على قمم الأصابع والعقد المكورة على مفاصل أصابعه. في الشقوق والأخاديد استقر وسخٌ، لم تستطع لا فرشاة الحصان ولا الصابون الصلب زحزحته. رأى إيجر العروق وهي ترتسم تحت الجلد، وعندما رفع يديه باتجاه ضوء الغسق في النافذة استطاع أن يرى كيف كانتا ترتجفان قليلاً جداً. كانتا يدي رجل عجوز، ثم تركهما تنزلان.

بقي إيجر مدة يعيش على تعويض التسريح الذي تدفعه الحكومة للعائدين من الحرب. ولأن النقود كانت بالكاد تكفي للأشياء الضرورية، وجد نفسه مجبراً على قبول جميع أنواع الأعمال المؤقتة كما في السابق عندما كان شاباً. كما في الماضي كان يزحف في الأقبية وفي التبن، يعتل أكياس البطاطا، يكدح في الحقل أو ينظف ما تبقى من حظائر الأبقار والخنازير. كان ما يزال باستطاعته مجاراة زملائه الأصغر سناً وفي بعض الأيام كان يحزم التبن على ظهره في كومة مدهشة بارتفاع ثلاثة أمتار ويمشي بتثاقل هابطاً بها المراعي شديدة الانحدار ببطء وترنّح. لكنه في المساء يهوي في سريره ويكون مقتنعاً أنه لن يتمكن من النهوض ثانية لوحده. في هذه الأثناء تصبحُ ساقُهُ العوجاءُ مخدَّرَةً تقريباً حولَ الركبة، وفي كل مرة يدير فيها رأسَه إلى أحد جانبيه ولو بمقدار سنتيمتر واحد كان يشعر بطعنةٍ في قفا رقبته، كانت تمتد مثل خيط من اللهب حتى رؤوس أصابعه، الأمر الذي كان يجبره على انتظار النوم وهو مستلقٍ على ظهره، وبلا أية حركة.

في صباحٍ صيفيٍّ من عام 1957 انسلّ إيجر من سريره قبل شروق الشمس بكثير، وخرج إلى الهواء الطلق. دفعته أوجاعه إلى الاستيقاظ من نومه، وكان للتحرك في هواء الليل العليل مفعولٌ جيد عليه. سار فوق طريق الماعز على طول المروج المشاعة التي كانت تتموج بنعومة تحت ضوء القمر، دار حول الصخرتين اللتين كانتا تبرزان مثل ظهرَيْ حيوانين نائمين، وبعد

حوالي ساعة من الصعود عبر التضاريس التي تتزايد وعورتها باستمرار انتهى به المطاف أخيراً بين التكوينات الصخرية تحت قمة كلوفترشبيتسه. في هذه الأثناء أعلن النهار عن قدومه، ومن بعيد كانت القمم المغطاة بالثلج قد بدأت تتوهج. كان إيجر يهم بالجلوس كي يقطع قطعة من نعله الجلدي المتمزق بمطواته حين ظهر خلف الصخرة رجلٌ مسن، وتوجه إليه بذراعين مفتوحتين. «سيدي العزيز العزيز!»، هتف به. «أنت بالتأكيد بشر حقيقي، ألست كذلك؟».

«أعتقد أني كذلك»، قال إيجر وهو يشاهد خلف الصخرة شخصاً ثانياً، كانت امرأة مسنّة اندفعت إليه متعثرة في خطاها. بدا الاثنان على نحو مثير للشفقة مشوَّشين ومرتعشين من الإنهاك والبرد.

الرجل الذي كان على وشك أن يرتمي باتجاه إيجر، رأى السكين في يده، فبقي واقفاً.

قال مذعوراً: «أنت بالتأكيد لا تريد أن تقتلنا، أليس كذلك؟».

وهمهمت المرأة وراءه: «إلهنا الذي في السموات، كن رحيماً بنا».

وضع إيجر سكينه جانباً من دون أن يتكلم، ونظر إلى وجهي الشخصين المسنَّيْن اللذين كانا يحدقان به بعيون مفتوحة على وسعها.

«سيدي العزيز»، كرر الرجل، وبدا كأنه على وشك الانفجار

بالبكاء. «طوال الليل ونحن نجول في هذه الأنحاء التي لا يوجد فيها غير الحجارة!».

ووافقته زوجته: «لا شيء سوى الحجارة!».

«حجارة أكثر من النجوم في السماء!».

«إلهنا الذي في السموات، كن رحيماً بنا».

«لقد تهنا».

«وحيثما ينظر المرء، لا يرى سوى الليل المظلم البارد!».

«والحجارة!»، قال الرجل المسن، ونزلت منه الآن بالفعل بعض الدموع، التي سالت خلف بعضها على خده ورقبته.

نظرت زوجته في عيني إيجر بتضرع، وقالت:

«كان زوجي على وشك الاستلقاء ليموت».

قال العجوز: «اسمنا روسكوفيتشس، ونحن متزوجان منذ ثمان وأربعين سنة. إن هذا تقريباً نصف قرن. حيث يعرف المرء ما يكنّ كل واحد للآخر، وما يعنيه كل واحد للآخر، هل تفهم ذلك، أيها السيد؟».

قال إيجر: «ليس تماماً، إضافة إلى أنني لست بسيد. لكن إذا شئتما أستطيع أن أنزل بكما الآن إلى الوادي».

بعد أن وصلا إلى القرية أصرّ السيد روسكوفيتشس أن يأخذ بين ذراعيه إيجر الذي كان كارهاً لذلك.

قال بتأثر: «شكراً!».

وكررت زوجته: «نعم، شكراً!».

«شكراً! شكراً!».

«حسن، لا بأس»، قال إيجر ورجع خطوة للوراء. خلال طريق نزولهم من قمة كلوفترشبيتسه زال توجّسُ الاثنين وشكُّهما بسرعة، وعندما دفّأت أشعة الشمس الأولى وجهَيهما بدا وكأن التعب قد طار دفعة واحدة. أراهما إيجر كيف يستطيعان أن يرتشفا ندى الصباح من عشب الجبال ليطفئا ظمأيهما، وكانا طوال الوقت تقريباً مثل الأطفال يثرثران وهما يسيران خلفه.

قال روسكوفيتشس: «نود سؤالك إذا ما كنت تستطيع أن تدلنا على بعض الطرق. يبدو أنك تعرف المنطقة كما لو كانت حديقة بيتك الأمامية».

وافقته زوجته: «في النهاية، إن جولةً في الجبل مثلَ هذه ليست نزهة بالنسبة لأمثالنا!».

«فقط لبضعة أيام. كل الأمر المطلوب هو صعود الجبل ثم النزول مرة أخرى. بالنسبة للأجر، ليس عليك أن تشغل بالك، نحن لا نريد لأحدٍ أن يأتي على ذكرنا بسوء. إذن، ما قولك بذلك؟».

فكر إيجر بالأيام الوشيكة القادمة. بضعة أمتار من الحطب يجب تقطيعها، وحقل بطاطا انزلقت أرضه تحت المطر ويجب أن يُحرث من جديد. بجزع فكر بمقبضَي المحراث في يديه، المقبضَيْن اللذين كانت حتى أقسى مسامير اللحم تعجز عن

تقديم الحماية منهما، واللذين بعد ساعات قليلة كانا يبدآن بالاتقاد كالجمر تحت أصابعه.

قال: «نعم»، يمكن لهذا أن ينجح».

طوال أسبوع كامل قاد إيجر العجوزَيْن فوق الدروب التي كانت تزداد صعوبة دائماً، وأراهما مفاتنَ المنطقة. منحه العمل السرور. كان المسير هيّناً بالنسبة له، وهواء الجبل يطيِّرُ من رأسه الأفكارَ السوداوية. إضافة لذلك كان هناك القليل من الكلام، وهو أمر لطيف في نظره، فمن جهة لم يكن هناك الكثير ليُحكى عنه بأية حال، ومن جهة أخرى فإن الاثنين خلفه كانا يلهثان لدرجةٍ أشدَّ من أن يستطيعا معها أن ينتزعا كلماتٍ غير ضرورية من رئاتهما التي كانت تفحّ بصوت منخفض.

بعد انقضاء الأسبوع ودّعَ الزوجان إيجر بحرارة، ودسَّ له السيد روسكوفيتشس بعضَ الأوراق النقدية في جيب سترته. اغرورقت عيون الزوجين بالدموع وهما يصعدان أخيراً إلى سيارتهما، ويختفيان في الاتجاه المؤدي إلى ديارهما فوق الشارع الذي كان ضبابُ الصباحِ الباكر ما يزال يغطيه.

استحسن إيجر المهمة الجديدة. ومع لوحةٍ كان قد رسمها بنفسه، وتحتوي برأيه على أكثرِ المعلوماتِ ضرورةً، وفي الوقتِ ذاتِه مثيرة نوعاً ما للاهتمام بما يكفي كي تجذب السياح إلى خدماته.

اتّخذَ لنفسه مكاناً قربَ النافورة مباشرةً في ساحة القرية، وانتظر.

إذا كنتَ تحبُّ الجبال

فقد وجدتَ ضالتك عندي

(أنا أمتلك خبرةَ عمْرٍ في الطبيعة)

أقدّم:

رحلات على الأقدام مع أمتعةٍ أو من دونها

نزهات (نصف نهار أو نهار كامل)

رحلات تسلق جبال

مسير في الجبال (للسادة المسنين، للمعاقين والأطفال)

جولات لجميع فصول السنة (عندما يكون الطقس مناسباً)

مشاهدة شروق شمس للذين يستيقظون باكراً

مشاهدة غروب شمس مضمون (فقط في الوادي، فهو خطير فوق الجبل)

لا خطر على الجسد والروح!

(الأجور يُفاوَضُ عليها، لكنها ليست مرتفعة)

فيما يبدو كان للّوحة وقعُها، فمنذ البداية سارت الأعمال بشكل جيد، حتى أن إيجر لم يعد يرى ضرورة لاستئناف خدمات العامل المساعد القديمة. كان كما في السابق ينهض غالباً في

العتمة، إلا أنه الآن بدلاً من الذهاب إلى الحقل كان يصعد إلى الجبال، ويراقب الشمس وهي تشرق. مع انعكاس أول أضوائها كانت وجوه السياح تظهر وكأنها تشعّ بوهجٍ من داخلها، وكان إيجر يرى، أنهم سعداء.

في الصيف كانت جولاته كثيراً ما تمتد لتصل إلى ما بعد القمم الجبلية القريبة، بينما كان يقتصر في الشتاء غالباً على جولاتٍ قصيرةٍ بأحذية الثلج العريضة التي كانت مع ذلك بالكاد تجعل الأمر أقل إجهاداً. كان يسير دائماً في المقدمة، عيناه على أية مخاطر محتملة، ولهاثُ السياح خلف ظهره.

لقد أحب هؤلاء الناس حتى عندما كان البعض منهم يحاول أن يُفهِمه العالم، أو غير ذلك عندما يتصرفون بشيء من السخافة. كان يعلم أنّ غرورهم بعد ساعتين من السير صعوداً على أكثر تقدير سوف يتبخّر مع العرق فوق رؤوسهم الساخنة، حتى لا يبقى شيء سوى الامتنان لإنجازهم ذلك، وتعب حتى النخاع.

كان يمرّ بأرضه القديمة أحياناً. في الموضع الذي كان فيه بيته، انحفر الركامُ بمرور السنوات متحولاً إلى ما يشبه السدّ. بين قطع الحجارة كان الخشخاش الأبيض يتألق في الصيف، وفي الشتاء يقفز الأولاد بزلاجاتهم فوقه. استطاع إيجر أن يشاهد كيف كانوا يهبطون المنحدر بسرعة الريح، ثم يرتفعون مع صرخة فرح، ويبحرون للحظة في الهواء قبل أن يحطّوا برشاقة، أو يتدحرجوا على الثلج مثل كُببٍ ملونة. كان يفكر بعتبة بيته التي جلس عليها مع

ماري في كثير من المساءات، وببوابة السياج الصغيرة بمزلاجها المعقوف البسيط الذي كان قد صنعه بليّ مسمار فولاذي طويل. بعد الانهيار الجليدي كان السياج قد اختفى ببساطة، مثل كثير من الأشياء الأخرى التي لم تظهر ثانية بعد ذوبان الثلج. لقد غابت كما لو لم يسبق لها أن وُجدت. شعر إيجر بالحزن يستعر في قلبه. كان يرى أنه كان من الممكن فعل الكثير من الأشياء في حياته، أكثر بكثير على الأرجح مما يمكنه أن يتخيل.

كان إيجر يصمت أغلب الوقت في جولاته. «من ينفتح فمه، تنغلق أذناه»، هكذا كان توماس ماتل دائماً يقول، وإيجر كان يشاطره وجهة النظر تلك. بدل الكلام، كان يفضل الإصغاء إلى الناس، الذين تُطلعه ثرثرتُهم اللاهثة على أسرار الأقدار ووجهاتِ النظر الغريبة. كان الناس على ما يبدو يبحثون في الجبال عن شيءٍ يعتقدون أنهم فقدوه قبل وقت طويل. هو لم يستطع أن يدرك ما هو هذا الشيء، لكنه كان بمرور السنوات يزداد قناعة أن السياح لم يكونوا يتبعونه هو في الأساس بقدر ما كانوا يتبعون، متعثّرين في خطاهم، حنيناً ما، مجهولاً، ولا شفاء منه.

مرة، أثناء استراحة قصيرة عند تسفانتسيجركوجل، أمسكه من كتفه شابٌّ كان يرتجف من شدة التأثر، وصرخ به:

«ألا ترى إذن كم هو رائع الجمال كل شيء هنا!».

نظر إيجر في الوجه المتقلص من الغبطة وقال:

«بلى، لكنها ستمطر بعد قليل، وحين تصبح الأرض زلقة، ينتهي أمر كل هذا الجمال».

مرة واحدة فقط خلال عمله كدليل في الجبال كاد إيجر أن يفقد أحد أرواح السياح. كان ذلك في يوم ربيعي في وقت ما من أواخر الستينات، خلال الليل كان الشتاء قد رجع مرة أخرى، وأراد إيجر أن يأخذ مع مجموعة صغيرة الطريقَ البانورامي فوق التيلفريك الجديد ذي المقاعد الأربعة. عندما كانوا يعبرون الجسر الصغير فوق صدع هويزلر، تزحلقت امرأة سمينة فوق الخشب المبلل، وفقدت توازنها. إيجر الذي كان يمشي أمامها مباشرة رآها من طرف عينه ترفرف بذراعيها، وترتفع إحدى ساقيها كأنها سُحبت بخيط غير مرئيّ نحو الأعلى. كان عمق الهوة تحت الجسر الصغير عشرين متراً. بينما هُرِعَ إليها كانت أنظاره مثبتة على وجهها الذي كما لو كان مأخوذاً بالشعور بالرهبة، أخذ يميل إلى الوراء أكثر فأكثر. سمع صوت طقطقة الخشب عندما سقطت بظهرها فوقه. في اللحظة الأخيرة قبل أن تنزلق فوق ألواح الإطار نحو الهاوية، وصل إليها ممسكاً كاحلها بيده. وبينما كان يتعجّب من ملمس اللحم الطري غير المعتاد تحت أصابعه التقطها من كمها بيده الثانية، وسحبها إلى فوق الجسر، حيث بقيت مستلقية بصمت، وبدا أنها تراقب الغيوم بدهشة.

«كان الأمر الآن على وشك أن ينتهي بسوء، أليس كذلك؟»، قالت له.

أثناء ذلك أخذتْ يدَ إيجر ووضعتْها على خدها، وابتسمت له. هز إيجر رأسه بفزع. كانت بشرة خدّها رطبة. تحت سطح يده

شعر بارتجافٍ بالكاد يمكن ملاحظته، وبدت له هذه الملامسة بطريقة ما غير لائقة. لقد ذكّره هذا بحادثةٍ جرت في طفولته. كان عمره في ذلك الحين ربما إحدى عشرة سنة. أخذه صاحب المزرعة من سريره في منتصف الليل. كان عليه أن يساعده في ولادة عجل. كانت البقرة تحاول جاهدة منذ ساعات، تدور مضطربةً في حلقة، وتحكّ خُطمَها بالحائط حتى ينزف. في النهاية أطلقت صوتاً مكتوماً، واستلقت على جانبها في القش. في الضوء المرتجف لقنديل الكيروسين رأى كيف كانت تقلب عينيها في محجَرَيهما، وكيف يسيل مخاط لزج من شقّها. عندما برزت قائمتا العجل الأماميتان نهض صاحب المزرعة الذي كان يجلس صامتاً فوق مقعده طوال الوقت، وشمّر كمَّيْه. لكنّ العجل توقف عن الحركة، واستلقت البقرة بهدوء هناك. فجأة رفعت رأسها وبدأت تخور. لقد كان صوتاً أصاب قلب إيجر بفزع يقشعرّ له البدن. «قضي الأمر!»، قال صاحب المزرعة، وانتزعا سويةً العجلَ الميت من جسم أمه. أمسك إيجر بالرقبة. كان الفراء طرياً ورطباً، وللحظةٍ قصيرة اعتقد أنه يحس بنبض، بخفقة قلب واحدة تحت أصابعه. حبس أنفاسه، لكن النبض كان قد توقف، وحمل صاحب المزرعة الجسمَ الخامد إلى العراء. في الخارج انبلج الصباح، إيجر الصغير وقف في الاصطبل، نظف الأرض، ومسح فراء البقرة بالقش، وأخذ يفكر بالعجل، الذي استمرت حياته خفقة قلب واحدة فقط.

ابتسمت المرأة السمينة. وقالت: «أعتقد أن كل شيء بقي سليماً، فقط فخذي يؤلمني قليلاً. الآن يمكننا نحن الاثنين أن ننزل إلى الوادي ونحن نعرج إلى جانب بعضنا البعض».

قال إيجر: «بل كل واحد يعرج لوحده!»، ونهض.

بعد وفاة ماري كان إيجر بين وقت وآخر يحمل سائحات قليلات الحيلة ليعبر بهن جدولاً جبلياً، أو يسحبهن من أيديهن فوق حافة صخرية زلقة، لكنه ما خلا ذلك لم يلمس امرأة إلا على نحو خاطف لا أكثر. لقد كان صعباً بما فيه الكفاية، أن يتأقلم من جديد على نحو ما مع الحياة. لم يُرِدْ ولا بأية حال من الأحوال أن يفقد السكينة التي نمت في داخله خلال السنوات. أساساً هو بالكاد كان قد فهم ماري، وكل النساء الأخريات بقين بالنسبة له لغزاً حقيقياً. لم يكن يفهم ماذا يردن، ولا ما لا يردن، وكثير مما كن يقلنه أو يفعلنه في حضوره، كان يشوّشه، أو يغيظه، أو يدفعه إلى حالة من التيبس الداخلي، لم يكن يخرج منها إلا بصعوبة. مرة في الشمواه الذهبي دفعت إحدى العاملات الموسميات بجسدها الثقيل الذي تفوح منه رائحة المطبخ باتجاهه، وهمست في أذنه بضع كلمات رطبة أربكته إلى درجة أنه هب خارج النزل من دون أن يدفع ثمن حسائه، ولتهدئة نفسه قضى نصف الليل يخوض في المنحدر المتجمد.

لحظات مثل هذه كانت قادرة مرة تلو الأخرى أن تهز روحه،

إلا أنها أخذت تقل مع كل سنة تمر، وتوقفت في النهاية عن الحدوث تماماً. لم يكن حزيناً حيال ذلك. كان لديه حبٌّ، وقد فقده. بعد ذلك لم يكن ليحدث له شيء مشابه، كان ذلك بالنسبة له مسلّماً به. والصراع مع الرغبة التي كانت ما تزال وباستمرار تعتلج داخله، كان صراعاً اعتزم خوضه مع نفسه حتى النهاية وحيداً تماماً.

مع ذلك عاش إيجر في بداية السبعينات مرة أخرى مغامرة، اعترضت رغبتَه بقضاء ما تبقى من عمره وحيداً، على الأقل لفترة قصيرة استمرت بضعة أيام خريفية. كان قد لاحظ منذ مدة قصيرة أن المزاج في غرفة الصف خلف حائط سريره قد تغير. كان الصياح المعتاد للأطفال قد أصبح أعلى، وفوراتهم التي تترافق دائماً وفي جميع الأحوال مع تهليل تحرّرهم لدى قرع جرس الاستراحة، كانت تبدو الآن وكأنها قد انفلتت من كل عقال. كان واضحاً تماماً أن هذه الثقة الصاخبة بالنفس التي اكتسبها التلاميذ حديثاً سببُها تقاعدُ معلم مدرسة القرية الذي قضى القسم الأكبر من حياته يزرع على أقل تقديرٍ لأجيالٍ من أبناء الفلاحين المبادئ الأساسية للقراءة والحساب في رؤوسهم المتبلدة التي نادراً ما كانت تنظر إلى أبعد من اللحظة الراهنة، مستعيناً عند الضرورة بهراوة من ذيل ثور كان قد فتلها بنفسه. فتح المعلم القديم النافذة بعد حصّته الأخيرة، رمى العلبة التي تحتوي على بقايا قطع الطباشير في حوض الورود، وأدار ظهره للقرية في اليوم نفسه،

الأمر الذي صدم أعضاء المجلس المحلي، خاصة أنه لن يكون بالإمكان العثور بتلك السرعة على خليفة متلهّف لشق طريقه بين قطعان الأبقار والمتزلجين. وقد عُثر على حلٍ للمشكلة في شخص آنّا هولر، وهي معلمة من الوادي المجاور متقاعدةٌ منذ سنوات، قبلت بامتنانٍ صامتٍ العرض بأن تتولى التدريس لفترة مؤقتة. كان لآنّا هولر أفكار أخرى عن التربية تختلف عما لدى سلفها. لقد كانت تثق بطاقات الأطفال الداخلية التي تمكّنهم من التطور، وقد قامت بتعليق ذيل الثور في الخارج على سور المدرسة، حيث تآكل بمرور السنوات، وغدا وسيلة لتسلق اللبلاب البري.

أما إيجر فلم يكن يعبأ بعلم التربية الحديث. ذات صباح نهض، وذهب إلى الجانب الآخر، وقال للمعلمة:

«اعذريني، لكن الصوت عال جداً. هناك رجل بحاجة إلى الهدوء ليرتاح».

«من أنت بحق الإله؟».

«اسمي إيجر، وأعيش بمحاذاتكم. لا بد أن السرير هنا تقريباً، خلف اللوح مباشرة».

تقدمت المعلمة خطوة باتجاهه. كانت أقصر منه بمقدار رأس ونصف على الأقل، إلا أنها وخلفها الأطفال يحدقون بإيجر من مقاعدهم بدت مهدِّدةً وغير مستعدة لأية مساومة على الإطلاق. كان بودّه قول المزيد، بدل ذلك أخفض نظره نحو مشمع

الأرضية ساكتاً. فجأة وجد نفسه غبياً، وهو يقف هناك: رجلاً مسناً بشكاوى سخيفة، يدفع حتى الأطفال الصغار إلى التحديق به بذهولٍ لا يخفى على أحد.

قالت له المعلمة:

«لا يستطيع المرء اختيار جيرانه، لكن هناك شيء أكيد وهو أنك: شخص فظ جلف! تدخل فجأة وتقاطع درسي، من دون استئذان، مشعث الشعر، غير حليق، وفوق ذلك كله بسروال داخلي، أو لا أدري ما هو هذا الشيء الذي ترتديه؟».

«إنه سروال نوم، لكن تم ترقيعه عدة مرات».

بهذا تمتم إيجر، الذي كان أساساً قد ندم بمرارة على مجيئه إلى هناك.

تنهدت آنا هولر، وقالت له:

«ستغادر الآن حالاً غرفة صفي»، وعندما تغتسل، وتحلق، وترتدي شيئاً مناسباً، عندئذ يسمح لك من جهتي بالعودة!».

لم يعد إيجر بعد ذلك. كان يقبل بالضجيج، أو يسدّ أذنيه عند اللزوم بالطحالب. بذلك كان الأمر بالنسبة له قد انتهى. وعلى الأرجح كان سيظل على هذا النحو، لو لم يُطرق بابُه بقوةٍ ثلاث مرات يوم الأحد الذي تلا ذلك. في الخارج كانت آنّا هولر تقف وفي يديها قالب حلوى. وقالت له:

«فكرتُ أن أحضر لك شيئاً تأكله، أين الطاولة؟».

قدم لها إيجر الشيء الوحيد الذي يمكن الجلوس عليه، وهو مقعد لحلب الماشية صنعه بنفسه، ووضع قالب الحلوى فوق صندوق تخزين قديم، كان بدافع خوف سري من مجيء أوقات صعبة قد حفظ فيه بعض علب المعلبات – لحم هاجيمير الألذ بالبصل– وزوج من الأحذية الدافئة.

«قالب حلوى مثل هذا يكون عادة جافاً جداً». قال لها ذلك، بينما مشى في الطريق إلى نافورة ساحة القرية حاملاً بيده الإبريق الفخاري.

أخذ يفكر بتلك المرأة التي تجلس الآن تماماً في غرفته، وتنتظر أن تقطع قالب الحلوى. فكر أنها ربما تكون في مثل عمره تقريباً، لكن سنواتها الطويلة كمعلمة كانت على ما يبدو قد جارت عليها. على وجهها تناثرت تجاعيد ناعمة، وتحت شعرها الداكن الذي عقدته على شكل كعكة محكمة كان يلمع منبت الشعر أبيض كالثلج. لدقيقة ألحّت عليه صورة غريبة: لم يعد يراها جالسة فقط تنتظر على مقعده، بل تصور أن مجرد وجودها قد غيّر الغرفة التي سكن فيها وحيداً منذ سنوات. فقد وسّعها، وفتحها بطريقة ما مزعجة على جميع الاتجاهات.

«هنا تعيش إذن»، قالت المعلمة عندما عاد بإبريق الماء الممتلئ.

«نعم»، قال لها.

قالت: «يستطيع المرء في النهاية أن يكون سعيداً في أي مكان.

كانت لها عينان بلون بني داكن ونظرة دافئة لطيفة، مع ذلك كان مزعجاً بالنسبة إلى إيجر أن تنظر إليه. أطرق بنظره نحو قطعة الحلوى في يده، دفع بسبابته حبة زبيب نحو الخارج، وتركها تسقط بشكل غير ملحوظ على الأرض. ثم أكلا، وكان عليه أن يعترف أن الحلوى كانت جيدة. على الأرجح، أخذ يفكر، كانت هذه الحلوى أفضل حتى من كل ما قد تناوله في السنوات الأخيرة. لكنه فضّل الاحتفاظ بهذا لنفسه.

فيما بعد، لم يكن إيجر ليستطيع القول كيف أخذت هذه المسألة بأكملها مجراها. كيف بتلك التلقائية وقفت المعلمة آنا هولر أمام بابه مع قالب الحلوى في يديها، كيف بهذه التلقائية دخلت حياته، وشغلت فيها خلال فترة قصيرة جداً مساحةً، افترضت كما بدا واضحاً أنها من حقها. لم يعرف إيجر بالضبط كيف حدث له ذلك، إضافة إلى أنه لم يرِدْ أن يكون فظاً. هكذا أخذ يتمشى معها، أو يجلس بجانبها تحت الشمس ويشرب القهوة التي كانت تحضرها بشكل دائم معها في ترمس، وتقول عنها إنها أشد سواداً من روح الشيطان. باستمرار كانت مثل هذه التشابيه حاضرة لدى آنّا هولر. في الواقع كانت تتكلم فعلياً من دون توقف. تتحدث عن التدريس، وعن الأطفال، وعن حياتها، وعن ذلك الرجل الذي صار منذ فترة طويلة هناك، حيث يجب أن يكون والذي كان عليها ألا تثق به أبداً، أبداً، أبداً.

أحياناً كانت تقول شيئاً لا يفهمه إيجر. كانت تستخدم

مفردات لم يسبق له أن سمع بها، وكان يفترض في سره أنها قامت باختراعها حين كانت تضيع منها الكلمات الصحيحة في الواقع. كان يتركها تتكلم. يستمع إليها، يهزّ رأسه بين وقت وآخر، يقول أحياناً نعم وأحياناً لا، ويشرب القهوة التي كانت تجعل قلبه يخفق بسرعة كما لو كان يتسلق الجانب الشمالي من الهوين كيمير.

ذات يوم أقنعته بالصعود بليزل الزرقاء إلى قمة كارلايتنر. وقالت إنه من هناك في الأعلى يستطيع المرء أن يشاهد القرية كلها، وستبدو المدرسة كعلبة كبريت ضائعة، وعندما يضيّق المرء عينيه يستطيع أن يميز الأطفال عند نافورة القرية كنقاط صغيرة ملونة.

عندما انطلق الجندول بهزةٍ خفيفةٍ وقف إيجر عند إحدى النوافذ. شعر بالمعلمة تقترب منه من الخلف وتنظر فوق كتفيه. فكر كيف أنه لم يغسل سترته منذ سنوات. على الأقل قام الأسبوع الماضي بتعليق سرواله في مياه النبع لنصف ساعة، ثم جففه في النهاية فوق صخرة مشمسة.

سألها: «هل ترين العارضة هناك في الأسفل؟ عندما قمنا بصب الأساسات، سقط أحدهم فيها. كان قد شرب كثيراً في اليوم السابق، وقد وقع مغشياً عليه عند منتصف النهار. ببساطة، ووجهه نحو الأمام في الخرسانة، تمدد هناك ولم يعد يتحرك. مثل سمكة ميتة في بركة ماء. وقد استغرق الأمر بعض الوقت

حتى تمكنّا من إخراجه من هناك. الخرسانة لم تعد سائلة تماماً. وقد فعلها. لكنه خسر البصر في إحدى عينيه منذ ذلك الحين. أما إذا كان ذلك بسبب الخرسانة أو بسبب الكراوترر؟ يصعب قول ذلك».

بعد وصولهما إلى الأعلى وقفا بعض الوقت فوق المنصة، ونظرا نحو الأسفل إلى الوادي. أحس إيجر أن عليه أن يسلي المعلمة بطريقة ما، وأخذ يشير إلى أشياء مختلفة في القرية: إلى بقايا زريبة محترقة للماشية، إلى مجمّعِ شققٍ لقضاء العطل تم تجهيزه على عجل فوق حقل من الشوندر، إلى مرجل ضخم غطاه الصدأ والجينيستا الحمراء الأرجوانية، كان جنود المشاة بعد نهاية الحرب قد تركوه مكانه خلف الكنيسة، ومن حينها صار الأطفال يستخدمونه في ألعاب الاستغماية. كانت آنا هولر تقهقه كل مرة تكتشف فيها شيئاً جديداً. أحياناً كانت الريح تبتلع ضحكها تماماً، لتبدو وكأنها فقط تشعّ نوراً بصمت بينها وبين نفسها.

عندما رجعا في بداية المساء إلى محطة الوادي، وقفا هناك بجانب بعضهما لفترة قصيرة ينظران إلى الجندول وهو يسير من جديد في طريقه نحو الأعلى. لم يعرف إيجر ماذا عليه أن يقول، أو ما إذا كان عليه أن يقول شيئاً أساساً، وأخيراً فضّل أن يلزم الصمت.

من غرفة المكنات في قبو المبنى انبعث أزيز المحركات المكتوم. أحس بأنظار المعلمة موجَّهةً نحوه.

«أودّ أن توصلني الآن إلى البيت»، قالت ذلك ومضت.

كانت تسكن في غرفة صغيرة خلف مبنى البلدية مباشرة، وضعتها البلدية تحت تصرفها خلال فترة توكيلها في المدرسة. كانت قد جهزت في صحنٍ بضعةَ قطعٍ من الخبز المدهون بالشحم مع بصل فوقه، وكانت في الخارج فوق إفريز النافذة زجاجتا بيرة باردتان. أكل إيجر الخبز، وشرب البيرة، وقد حرص خلال ذلك على ألا ينظر إلى المعلمة.

قالت له: «أنت رجل. رجل حقيقي بشهية حقيقية، أليس هذا صحيحاً؟».

«قد يكون كذلك»، قال ذلك وهزّ كتفيه.

في الخارج كان الظلام يحل ببطء، نهضت ومشت بضع خطوات في الغرفة. وقفت أمام كومودينو صغير. رآها إيجر من الخلف تخفض رأسها، كما لو أنها أضاعت شيئاً فوق الأرضية الخشبية. كانت أصابعها تلعب بحاشية تنّورتها. على كعبيها كان التراب والغبار ما يزالان عالقين. كان هناك صمت رهيب في الغرفة. كما لو أن صمت جميع الوديان الذي كان قد انسحب منها منذ زمن بعيد، قد تجمع الآن في هذه اللحظة، في هذه الغرفة الصغيرة. تنحنح إيجر. وضع زجاجته وأخذ يراقب قطرةً هبطتْ ببطء فوق الزجاج، وحطتْ على غطاء الطاولة بقعةً مدورةً داكنة. وقفت آنا هولر أمام الكومودينو، بلا حراك، خافضة نظرها. رفعت رأسها أولاً، ثم يديها. وقالت:

«الإنسان غالباً ما يكون وحيداً في هذه العالم».

ثم استدارت. أشعلت شمعتين ووضعتهما فوق الطاولة. أغلقت الستائر. وأقفلت الباب بالمزلاج. وقالت له:

«تعال الآن».

كان إيجر ما يزال يحدق في البقعة الداكنة فوق غطاء الطاولة.

قال لها: «طوال حياتي نمت مع امرأة واحدة فقط».

قالت المعلمة: «لا يهم لا مشكلة لديَّ في هذا».

لاحقاً، أخذ إيجر ينظر إلى المرأة المسنة النائمة وهي مستلقية قربه. بعد أن ذهبا إلى الفراش، وضعت يدها فوق صدره، وتحتها كان قلبه يطرق بصوت عال، لدرجة أعتقد معها أن الغرفة كلها كانت تهتز. لم ينجح الأمر. لم يستطع حمل نفسه على القيام بذلك. بلا أية حركة، كما لو كان مثبتاً بمسمار، استلقى هناك، شاعراً باليد فوق صدره تتزايد ثقلاً حتى هبطت أخيراً بين أضلاعه، وحطت مباشرة فوق قلبه. أخذ يراقب جسدها. كانت مستلقية على جانبها. رأسها انزلق عن الوسادة، وتمدد شعرها في خصل ناعمة فوق ملاءة السرير. كان وجهها مائلاً قليلاً إلى الجهة الأخرى، وقد بدا نحيلاً وضامراً، وبدا ضوء الليل الذي هبط عبر شق ضيق في الستارة وكأنه اشتبك بالتجاعيد الكثيرة.

غفا إيجر، وعندما استيقظ ثانية، كانت المعلمة تستلقي متكورة على جانبها، واستطاع أن يسمع صوت نشيجها المكتوم

في الوسادة. بقي مستلقياً لبعض الوقت قربها وهو حائر، لكنه أدرك بعد ذلك أن لا شيء في هذا العالم كان بالإمكان فعله حيال هذا. نهض بهدوء، ورحل.

في السنة نفسها أتى معلم جديد إلى القرية، شاب بوجه صبياني، وشعره حتى الكتفين كان يربطه في ضفيرة صغيرة، وكان يقضي مساءاته وهو يحيك كنزات صوفية، ويبري الجذور ليصنع منها صلباناً مفتولة. هدوء الأيام الخوالي وانضباطها لم يرجعا إلى المدرسة بعد ذلك أبداً، وتعوّد إيجر على الضجة خلف جدار غرفة نومه. المعلمة آنّا هولر رآها بعد ذلك مرة واحدة فقط. كانت تسير حاملة سلة تبضّع في ساحة القرية. كانت تسير ببطء وبخطوات صغيرة بشكل غير طبيعي، مطرقة رأسها، وبدت غارقة تماماً في أفكارها. عندما رأت إيجر رفعت يدها، ولوّحت له بأصابعها كما يلوِّح شخص لطفل صغير. نظر إيجر بسرعة إلى الأرض. بعد ذلك خجل من نفسه بسبب لحظة الجبن تلك. غادرت آنّا هولر القرية بهدوء ومن دون أن يلحظ ذلك أحد، مثلما أتت. في صباح بارد صعدت بحقيبتَي سفر حافلةَ البريد قبل شروق الشمس، جلست في الصف الخلفي، وأغمضت عينيها اللتين – كما روى السائق بعد ذلك – لم تفتحهما ثانية ولا مرة واحدة طوال الرحلة.

في ذلك الخريف، بدأ الثلج في الهطول مبكراً. بعد أسابيع قليلة فقط من رحيل آنّا هولر كان المتزلجون يقفون في صفوف

طويلة أمام محطات الوادي وحتى وقت متأخر من المساءات كان يُسمع في كل مكان في القرية صوت الطقطقة المعدنية لأربطة الزلاجات وصرير أحذية التزلج. في يوم بارد، صافٍ، مشمسٍ، قبل عيد الميلاد بقليل كان إيجر في طريق عودته إلى المنزل بعد مسيرٍ في الثلج مع بعضٍ من السادة والسيدات المسنّين حين أتت باتجاهه من الجانب الآخر من الشارع فرقةٌ من السياح المنفعلين، يتبعها بعضُ السكان الأصليين، ودركيُّ القرية، وحشدٌ من الأطفال الصاخبين. كان شابان ببدلتي التزلج قد حولا زلاجاتهما إلى ما يشبه الحمالة، وفوقها تمدد شيء كان لا يمكن نقله على ما يبدو إلا بأكبر قدر من الحذر. تعامل الرجال مع ذلك الشيء برهبة عجيبة ذكّرتْ إيجر بحماسةِ خدّامِ المذبح وهم يطوفون حول المذبح في قداديس الآحاد. قطع الشارع كي يرى المشهد عن قرب، وما رآه جعله يحبس أنفاسه. فوق الحمالة المؤقتة تمدد هانيس ذو القرون.

للحظة اعتقد إيجر أنه فقد عقله، لكن لم يكن هناك مجال للشك: أمامه تمدد راعي الماعز أو بالأحرى ما تبقى منه. كان جسده قد تجمد حتى التصلب. وبقدر ما أمكن للمرء أن يميز، فقد كانت إحدى ساقيه مفقودة، بينما برزت الأخرى خارج الحمالة باعوجاج مشوه. ذراعاه كانتا مشبوكتان بإحكام حول صدره، على اليدين علقت بقايا لحم جاف، وعظام الأصابع المكشوفة تماماً تقريباً كانت قد تقوست مثل مخلبي طائر. الرأس

كان مائلاً إلى الوراء بشدة، كما لو أن أحدهم قد شده بعنف نحو الخلف. كان الجليد قد انتزع نصف وجهه عن العظم. أسنانه مع اللثة السوداء المزرقة كانت مكشوفة وبدا كما لو كان يبتسم باستهزاء. على الرغم من أن الجفنين كانا قد فُقدا إلا أن العينين كانتا سليمتين تماماً، وبدتا وكأنهما تحدقان في السماء مفتوحتين على وسعهما.

تنحى إيجر، مشى بضع خطوات، وتوقف مرة ثانية. كان يشعر بالغثيان وفي أذنيه كان هناك صوت آت من مكان عميق. أراد أن يقول شيئاً للرجال – لكن ماذا؟ في رأسه تراقصت الأفكار. لم يستطع التعبير عن واحدة منها، وعندما استدار مرة أخرى، كانوا قد مضوا منذ وقت طويل. بعيداً في الشارع خلفه مشوا بحملهم البارد كالثلج باتجاه الكنيسة. على جهةٍ مشى الدركيّ، وعلى الجهة الأخرى برزت ساق راعي الماعز مثل جذرٍ يابس في الهواء.

كانت مجموعة من المتزلّجين المحبين للمغامرة، قد وجدوا هانيس ذا القرون إلى الأعلى من مسار التزلج المأهول، داخلَ صدع في نهر فيرنايز الجليدي. استغرقوا ساعات حتى نكشوا الجليد المستديم وانتشلوه. كان ضيقُ الصَّدْع قد حال إلى حد بعيد دون وصول الطيور والحيوانات الأخرى، وكان الجليد قد حفظ الجسد طوال تلك العقود. فقط الساق كانت مفقودة. أخذ الرجال يخمّنون: ربما نال منها حيوان قبل أن ينزلق الميت في الصدع، ربما قطعتها صخرة، ربما قام هو نفسه بقطعها في

حالة من اليأس كي يحرّر نفسه. بقي اللغز من دون حل، والساق بقيت مختفية، والجدعة لم تكن توحي بأي شيء. كانت ببساطة مجردَ جدعة تغطيها طبقة رقيقة من الجليد، بحواف مهترئة قليلاً، وسطها أسود مزرقّ مثل لثة راعي الماعز.

تم إحضار الميت إلى الكنيسة، كي يتسنى أن يودعه من أراد ذلك. لكن باستثناء بعض السياح الذين أرادوا أن يشاهدوا بأم عينهم الجثة الغامضة المتجمدة المسجّاة في ضوء الشموع ويلتقطوا لها صوراً من أكبر عدد ممكن من الزوايا لم يأتِ أحد. لم يكن أحد يعرف هانيس ذا القرون، لم يتمكن أحد من تذكره، ولأن نشرة الطقس أعلنت عن ارتفاع في درجات الحرارة، تم دفنه في اليوم الثاني.

هزت المصادفة غير المتوقعة إيجر. حياة كاملة تقريباً امتدت بين اختفاء هانيس ذي القرون وظهوره من جديد. تخيل أمام عينيه الهيئة الشفيفة وهي تبتعد بقفزات واسعة، وتختفي في السكون الأبيض للثلج المتطاير. كيف تمكن من الوصول إلى النهر الجليدي الذي يبعد كيلومترات؟ ما الذي كان يبحث عنه هناك؟ ما الذي جرى له في النهاية يا ترى؟ كان يقشعر بدن إيجر لدى التفكير بالساق التي ما تزال على الأرجح عالقة في مكان ما من النهر الجليدي. ربما يُعثر عليها هي الأخرى بعد بضع سنوات، ويتم حملها إلى الوادي كرمز انتصار عجيب فوق أكتاف سياح التزلج المنفعلين. بالنسبة لهانيس ذي القرون لم يكن لكل هذا

أيّ أهمية أغلب الظن. هو يرقد الآن في الأرض بدلاً من الثلج، وقد نال راحته بهذا أو ذاك. فكر إيجر بالموتى الذين لا يُحصى عددهم خلال الوقت الذي قضاه في روسيا. كان تقلصُ وجوه الجثث في الجليد الروسي أفظعَ ما رآه طوال حياته. على النقيض من ذلك، بدا هانيس ذو القرون سعيداً على نحو عجيب. كان في ساعته الأخيرة يضحك على السماء، فكر إيجر، ورمى ساقه في حلق الشيطان كرهن. هذا التصور أعجبه، كان فيه شيء معزٍّ.

إلا أنّ شيئاً آخر أيضاً كان يشغله: كان راعي الماعز المتجمد ينظر إليه كما لو أنه ينظر من النافذة عبر الزمن. في تعبير وجهه المتّجه نحو السماء كان هناك شيء أقرب ما يكون إلى الصبا. فيما مضى عندما وجده إيجر في كوخه مريضاً على وشك الموت وحمله على الحمالة الخشبية إلى الوادي، ربما كان في الأربعين أو الخمسين من عمره. كان إيجر في هذه الأثناء قد تجاوز السبعين بسنوات، ولم يكن يشعر أنه أصغر سناً على الإطلاق. الحياة والعمل في الجبل تركا أثرَيهما. كل شيء فيه كان قد انحنى واعوجّ. ظهره بدا في انحنائه الشديد وكأنه يريد بلوغ الأرض، وازداد شعوره بأن عموده الفقري كان ينمو إلى أبعد من رأسه. صحيح أن وقفته فوق الجبل كانت ما تزال ثابتة وحتى الرياح المنحدرة القوية في الخريف لم تكن لتخلّ بتوازنه، إلا أنه كان يقف هناك مثل شجرة متآكلة من الداخل.

***

في سنواته الأخيرة لم يعد إيجر يلبي الطلبات التي أخذت تقلّ على أية حال. كان يجد أنه كدح ما يكفي في حياته. إضافة لذلك كان تحمّله لهراء السيّاح وأمزجتهم المتبدلة باستمرار كطقسِ الجبل يزداد صعوبة أكثر فأكثر. ذات مرة كان على وشك أن يصفع شاباً من أهل المدن، وقف فوق صخرة مغمض العينين وبقي يدور حول نفسه من شدة الفرح حتى هوى فوق حقل الحصى الممتدّ تحته، واضطرّ إيجر وبقيّة أفراد المجموعة إلى حمله إلى الوادي وهو ينتحب مثل طفل صغير. بعد هذا أنهى إيجر مهنته كدليل في الجبال، وعاد إلى الحياة الخاصة.

ازداد عدد سكان القرية منذ الحرب ثلاثة أضعاف، وازداد عدد أسر النزلاء عشرة أضعاف، ما حدا بالبلدية إلى إنجاز منتجع للعطل سويّاً مع مسبح داخلي وحديقة للاستشفاء إضافة إلى توسيع بناء المدرسة المؤجل منذ زمن طويل. غادر إيجر حتى قبل أن يصل عمال البناء. حزم أمتعته القليلة وانتقل إلى حظيرة للماشية، مهجورةٍ منذ عقود، تقع فوق المخرج الخلفي للقرية

بمئات الأمتار. كانت الحظيرة قد بُنيت داخل المنحدر على هيئة كهف، الأمر الذي كان له ميزة أنّ درجات الحرارة طوال العام لا تخضع لتقلبات كبيرة. كانت الواجهة عبارة عن صفوف مرصوفة من حجارة متآكلة لحقلٍ، قام إيجر بحشو ثقوبها بالطحالب أولاً ثم بعد ذلك بالإسمنت. سدّ الشقوق في الباب، دهن الخشب بقطران الصنوبر، وكشط الصدأ عن المفصلات. بعد ذلك كسر حجرين من الحائط، ووضع بدلاً منهما نافذة ومدخنة للموقد الأسود- من السخام- الذي كان قد عثر عليه فوق كومة من الخردة خلف محطة الوادي لتلفريك بوبنكوجل ذي الكرسي المعلق. شعر بالراحة في بيته الجديد. في الأعلى كان هناك شيء من الوحدة أحياناً، لكنه لم يكن يرى وحدته كنقيصة. لم يكن لديه أحد، لكن كان عنده كلّ ما يحتاجه، وكان ذلك كافياً. الإطلالة من النافذة كانت رحبة، الموقد كان دافئاً وعلى أبعد تقدير بعد أول شتاء تتم تدفئته. ستكون الرائحة العابقة للماعز والماشية قد ولّت إلى غير رجعة. استمتع إيجر بالهدوء أكثر من أي شيء آخر. الضجيج، الذي كان يملأ الوادي بأكمله والذي كانت أمواجه تتكسّر فوق منحدرات الجبل في عطل نهاية الأسبوع، لم يعد يصل إليه إلا بشكل إحساس خفيف. في بعض الليالي الصيفية حين كانت الغيوم تعلّق ثقيلة بالجبال، وتفوح من الرياح رائحة المطر، كان إيجر يتمدد على فراشه، ويسترق السمع إلى أصوات الحيوانات التي كانت تحفر في الأرض فوق رأسه. في الشتاء كان يسمع عند المساء الأزيز المكتوم للعربات

المجنزرة المستخدمة في تحضير مسارات التزلج، والتي كانت في البعيد تحضّر منحدرات التزلج لليوم التالي. كان الآن كثيراً ما يعاود التفكير بماري. بالذي كان، والذي كان يمكن له أن يكون. لكنّها كانت مجرد أفكار قصيرة عابرة، تمرّ به سريعاً كمرور بقايا سحاب العاصفة أمام نافذته.

لأنّ أحداً سواه لم يكن هناك كي يستطيع التحدث معه، كان يتكلم مع نفسه أو مع الأشياء التي تحيط به. كان يقول: «أنت لا تنفع لشيء. أنت مثلوم كثيراً. سأشحذك على حجر. ثم سأنزل إلى القرية وأشتري بعض أوراق الصنفرة الناعمة، وسأشحذك مرة أخرى. وسألفّ مقبضك بجلد. سوف تتوضّع في اليد بشكل جيد، وستظهر بمظهر جيد، رغم أن هذا ليس موضوعنا، أتفهم؟».

أو يقول: «كم يغرق المرء في الكآبة بسبب الطقس. لا شيء مثل الضباب. حيث يزلق النظر، لأنه لا يعرف أين يجب عليه أن يَعْلَق. إذا استمرّ الأمر بهذا الشكل، سيتسرّب الضباب قريباً إلى الغرفة، وسيبدأ رذاذ ناعم جداً بالهطول فوق الطاولة».

ويقول: «قريباً سيحلّ الربيع. لقد رأته الطيور. هناك شيء يدبّ في العظام. وعميقاً تحت الثلج تنفلق البصلات الآن».

أحياناً يدفع شيء ما إيجر إلى الضحك على نفسه وعلى أفكاره هو. فيجلس وحيداً إلى طاولته، ينظر عبر النافذة إلى الجبال، تنسحب ظلال الغيوم فوقها بصمت، ويضحك، حتى تدمع عيناه.

مرة في الأسبوع كان ينزل إلى القرية كي يحضر أعواد كبريت وطلاء أو خبزاً وبصلاً وزبدة. لقد أدرك منذ مدة طويلة أنّ للناس أفكارهم عنه. عندما يمضي عائداً في الطريق إلى بيته مع مشترياته فوق زلاجة صنعها بنفسه، يزوّدها في الربيع بعجلات مطاطية، كان يرى الناس بطرف عينه وهم يقرّبون رؤوسهم من بعضها خلف ظهره، ويبدأون بالتهامس عليه. عند ذلك يستدير باتجاههم ويرمقهم بنظرة محمَّلة بأقصى ما يمكنه من غضب. ولكن في الحقيقة، تكاد آراء القرويين وما يبدونه من سخط، لا تعنيه في شيء. بالنسبة لهم كان هو مجرد رجل عجوز، يسكن في جحر، يتحدث إلى نفسه. وفي الصباح يقرفص عند الجدول الجبلي البارد كالثلج كي يغتسل. أما حسب مفهومه هو فقد أنجز ما عليه بطريقة ما، وبناء عليه فقد كان يحقّ له أن يشعر بالرضا. من المال الذي جمعه من عمله كدليل للسياح، سيمكِنه العيش بشكل ملائم لفترة من الزمن، كان لديه سقف فوق رأسه، وينام على سريره الذي يملكه، وعندما يجلس فوق مقعده الصغير أمام الباب، كان بإمكانه أن يشرد بنظره حتى تطبق أجفانه، ويسقط ذقنه فوق صدره.

ككل الناس كانت لديه أيضاً خلال حياته تصورات وأحلام يحملها في داخله. بعضها حققها بنفسه، وبعضها أُهديت إليه. الكثير بقي غير قابل للتحقّق، أو لم يكد يتحقّق له حتى انتُزِع مرة أخرى من يديه. لكنّه كان ما يزال هنا. وفي الأيام التي كانت تأتي بعد أول ذوبان للثلج عندما كان يمشي صباحاً عبر المرج الندي أمام كوخه ويستلقي فوق واحدة من الصخور المسطحة

المتناثرة، تحت ظهره الحجر البارد وعلى وجهه أشعة الشمس الأولى الدافئة، حينها كان ينتابه شعور بأنّ كثيراً مما جرى لم يكن في النهاية بذلك السوء إطلاقاً.

كان ذلك هو الوقت ذاته أيضاً، بعد ذوبان الثلج، عندما يتصاعد البخار من الأرض في ساعات الصباح المبكرة، وتزحف الحيوانات خارجة من جحورها وكهوفها، عندما التقى أندرياس إيجر بالسيدة الباردة. كان قد قضى ساعاتٍ وهو يتقلّب أرَقاً يمنة ويسرة فوق فراشه، لاحقاً استلقى هناك هادئاً، شابكاً ذراعيه فوق صدره، ومصغياً لصوت الليل، للريح المضطربة التي كانت تحوم حول كوخه وترتطم بالنافذة بضربات مكتومة. ثم فجأة حل السكون. أشعل إيجر شمعة، وأخذ يحدّق بالظلال المرتجفة على السقف. أطفأ الشمعة مجدَّداً. لبعض الوقت بقي بلا حراك هناك. أخيراً نهض وخرج. كان العالم غارقاً في ضباب كثيف. كان ما يزال ليلاً، لكنْ في مكان ما خلف هذا الصمت الرقيق كان قد انبلج الصباح، ولمع الهواء كالحليب في العتمة. صعد إيجر بضع خطوات فوق المنحدر. كان بالكاد يستطيع رؤية معالم يديه أمام عينيه، وعندما يبسطهما، كانتا تبدوان كأنهما غاطستان في مسطح مائي عميق لا يسبر غوره. تابع سيره، بحذر، خطوة تلو خطوة، بضع مئات من الأمتار فوق الجبل. من بعيد سمع نغمة، مثل صفير المرموط طويل النفس. بقي واقفاً ورفع نظره. في طاقة في الضباب كان القمر، أبيض وعارياً. فجأة شعر بنفحة هواء على وجهه. وفي اللحظة التالية عادت الريح مجدداً.

كانت تأتي بشكل نفحات مفردة، تنتف الضباب وتمزّقه إلى نتف مبعثرة. سمع إيجر عويل الريح وهي تحوم حول الصخور العالية، ووشوشتها في العشب عند قدمَيه. تابع سيره عبر كتل الضباب التي كانت تتطاير من أمامه مثل كائنات حية. رأى كيف انفتحت السماء، ورأى الصخور المسطّحة تعلوها بقايا الثلج كأنّ أحداً قد مدّ فوقها مفارش طاولات بيضاء. ثمّ عندها رأى السيدة الباردة وهي تقطع المنحدر فوقه بحوالي ثلاثين متراً. كانت هيأتها بيضاء تماماً، لدرجةٍ ظنّ معها للوهلة الأولى أنها رقعة ضباب. لكنّه بعد ذلك بقليل ميّز بوضوح ذراعيها الشاحبين. منديلها الذي التفّ مهلهلاً حول كتفيها. وشعرها، مثل ظلّ فوق بياض جسدها. دبّت قشعريرة على طول ظهره. هنا فجأة أحسّ بالبرد. لكن ذلك لم يكن الهواء الذي كان بارداً جداً. البرد أتاه من داخله. كان يقبع عميقاً في قلبه، وكان الارتياع. تحرّكت الهيأة باتجاه تشكّل صخريّ ضيّق، ورغم أنها كانت تتقدّم بسرعة إلا أنّ إيجر لم يستطع أن يرى لها أيّة خطوات. كان كما لو أنّها تُسحب بآلية خفيّة من قبل الصخور. لم يقدم على أيّة حركة. كان الارتياع يقبع في قلبه، لكنّه في الوقت نفسه، وبشكل مثير للعجب، كان يخشى أن يدفع الهيأة بسبب صوت أو حركة متهوّرة إلى الابتعاد. رأى الريح تشتبك في شعرها، وتهبّ للحظة قصيرة من خلف رقبتها. وهنا أدرك كل شيء. «استديري»، قال لها. «أرجوك استديري وانظري إليّ!» لكن الهيأة استمرت في ابتعادها، ولم يرَ إيجر سوى رقبتها من خلف، وعليها كان الهلال الأحمر لندبتها يلمع. ناداها:

«أين كنتِ طوال تلك المدة؟، هناك الكثير لأحكيه لك. سوف لن تصدقي ذلك ماري! هذه الحياة الطويلة بكاملها!». لم تستدر. لم تجب. لم يكن يسمع سوى صوت الريح، عويلها وصفيرها وهي تمسح على الأرض حاملة معها آخر ما تبقّى من ثلج السنة.

وقف إيجر وحيداً فوق الجبل. طويلاً وقف هناك، ومن دون حراك، بينما كانت ظلال الليل تنسحب من حوله. عندما تحرّك أخيراً كانت الشمس ترسل بريقها من خلف سلاسل الجبال البعيدة وتسكب ضوءها فوق القمم، جميلاً وناعماً لدرجة كان سيضحك معها من الفرح الصافي لو لم يكن متعَباً ومضطرباً إلى تلك الدرجة.

في الأسابيع التي تلت ذلك أخذ إيجر يطوف المنحدر الصخري فوق مسكنه مجدداً، إلا أنّ السيدة الباردة أو ماري أو أيّاً كان ذلك الخيال لم يظهر له ثانية أبداً، وشيئاً فشيئاً بهتت صورتها حتى امّحت كلياً في النهاية. أساساً صار إيجر كثير النسيان. كان يحدث أن ينفق ساعة كاملة بعد نهوضه من الفراش وهو يبحث عن حذائه الذي علقه في الليلة السابقة على ماسورة المدخنة كي يجفّ. أو أثناء تفكيره في ماذا كان يريد في الواقع أن يطبخ للعشاء، يسقط في حالة من شرودٍ مغرقٍ في التفكّر، كان يجعله متعَباً جداً، لدرجة أنه غالباً ما كان يغفو وهو يجلس إلى الطاولة سانداً رأسه بيديه، من دون أن يكون قد أكل لقمة واحدة.

أحياناً كان قبل ذهابه إلى النوم يضع مقعده عند النافذة، وينظر عبرها آملاً أن تظهر على خلفية هذا الليل بعض الذكريات، التي

تعيد على الأقل بعضاً من الترتيب إلى ذهنه المضطرب. لكنْ، أكثر فأكثر أخذ يفلت منه الترتيب الزمني للأحداث، وتتداعى الأشياء مختلطة ببعضها البعض. وما إن يلوح له أنّ صورة تتجمع في خياله حتى تفلت من يده مرة أخرى أو تتلاشى مثل زيت التشحيم فوق حديد ساخن.

على الأقل منذ رآه بعض المتزلجين في صباح شتائي صقيعي يخطو عارياً كما ولدته أمه أمام كوخه، يخوض في الثلج حافي القدمين، ويحاول العثور على زجاجة بيرة كان قد أودعها في العراء في المساء السابق كي تبرد، صار البعض من أهالي القرية يعتبرون إيجر العجوز مجنوناً تماماً. لم يضايقه ذلك. كان واعياً لتشوّشه المتزايد لكنه لم يكن مجنوناً. إضافة لذلك كان في ذلك الوقت قد أصبح بالكاد يعطي أهمية لآراء الآخرين، ولأنّ الزجاجة أيضاً كانت بعد بحث قصير قد ظهرت ثانية (وتحديداً قرب المزراب مباشرة، حيث كانت قد انفجرت في صقيع الليل، واستطاع أن يمصّ البيرة مثل مصاصة المثلجات)، فقد وجد نفسه مع شعور صامت بالارتياح أنّه كان على حقّ في تفكيره وتصرفه.

حسب شهادة ميلاده التي كانت برأيه لا تساوي حتّى قيمة الحبر الذي خُتمت به، عاش إيجر تسعة وسبعين عاماً. لقد صمد فترةً أطول بكثير مما سبق أن توقّع هو نفسه أن يصمد، واستطاع بالمجمل أن يكون راضياً. لقد نجا من طفولته، ومن حرب، ومن انهيار جليدي. لم يتعالَ يوماً على العمل. قام بتفجير عدد لا

يمكن الإحاطة به من الحفر في الصخر، وقطع من الأشجار ما يكفي على الأرجح ليشعل بخشبه مواقد مدينة صغيرة بأكملها شتاءً بطوله. لقد علّق حياته مراراً على حبل بين السماء والأرض، وفي سنواته الأخيرة عندما عمل دليلاً سياحياً خَبرَ عن البشر أكثر مما كان يمكنه أن يستوعب. على حدّ علمه لم يرتكب جرماً يستحق الذكر، ولم يكن يوماً أسيراً لمغريات الدنيا، ولا للشرب، ولا للفسق، ولا للنّهَم. لقد بنى بيتاً، ونام في عدد لا يحصى من الأسرّة، وفي حظائر، وفي صناديق الشاحنات، ونام بضع ليالٍ حتى في صندوق خشبي روسي. لقد أحب، وأخذ فكرة إلى أين يمكن للحب أن يقود. لقد رأى بضعة رجال يتمشّون فوق القمر. لم يضطرّ يوماً للإيمان بالله، ولم يخَفْ من الموت. لم يكن باستطاعته أن يتذكّر من أين أتى، وفي النّهاية لم يكن يعرف إلى أين سيمضي. لكنّه كان يستطيع أن ينظر خلفه، إلى الزمن الممتدّ بينهما وإلى حياته، بلا أسف، بضحكة مجلجلة وبذهول كبير لا مثيل له.

توفي أندرياس إيجر في ليلة من ليالي شباط، ولكن ليس في مكان ما في العراء، كما تخيّل مراراً، حيث الشمس على قفا رقبته، أو السماء المرصعة بالنجوم فوق جبينه، إنما عنده في البيت، وعلى طاولته. كانت الشموع قد انتهت من عنده، فجلس في ضوء القمر الشحيح الذي بدا في مربع النافذة الصغير، مثل لمبة عتّمها الغبار وشباك العنكبوت. كان يفكر في الأشياء التي خطّط لها للأيام القادمة: شراء بعض الشموع، سدّ الشق الذي

يسرّب الهواء في إطار النافذة، حفْر حفرة يصل عمقها حتى الركبة وبعرض ثلاثين سنتيمتراً على الأقل أمام كوخه، لتصريف الماء الذائب. سيتعاون الطقس معه، استطاع قول ذلك بشيء من الثقة. عندما تهدأ ساقه في المساء، يهدأ الطقس أيضاً في غالب الأحيان في اليوم التالي. غمره شعور بالحب عندما فكر بساقه، بقطعة الخشب العفنة هذه، التي حملته عبر العالم طوال هذا الوقت. في الوقت ذاته، لم يعد يعرف إذا ما كان هذا شيءٌ لايزال يفكر به، أم أنّه قد بدأ يحلم. سمع صوتاً قريباً تماماً من أذنه. همس لطيف كما لو أن أحداً يتحدث إلى طفل صغير. «لقد صار الوقت متأخّراً حقاً»، سمع نفسه يحدّث نفسه، وكان كما لو أنّ كلماته قد تأرجحت بضع لحظات في الهواء أمامه قبل أن تنفجر في ضوء القمر الصغير في النافذة. أحس بألم واضح في صدره، وشاهد جذعه ينحني ببطء إلى الأمام، ورأسه يحط بخده على سطح الطاولة. سمع قلبه. وأصغى للصمت حين توقف عن الخفقان. بصبرٍ انتظر خفقة قلبه التالية، وعندما لم تأتِ، سلّم ومات.

بعد ثلاثة أيام عثر عليه ساعي البريد، الذي كان يطرق على النافذة ليسلّم نشرة الكنسية. كانت جثة إيجر بسبب درجات الحرارة الشتوية قد بقيت في حالة جيدة، وبدا كما لو أنّه قد أغفى أثناء الفطور. تمت الجنازة في اليوم التالي. كانت المراسم قصيرة. تجمَّدَ قسّ الرعية من البرد بينما كان حفارو القبور ينزلون النعش في الحفرة التي حفروها بحفارة صغيرة. يرقد أندرياس

إيجر بالقرب من زوجته ماري. فوق قبره حجر جيري تنتشر فيه الشقوق، وينمو فوقه في الصيف زهر الكتانية البنفسجي الفاتح.

في أحد الصباحات التي سبقت وفاته بأقل من ستة أشهر، استيقظ إيجر باضطراب داخلي، دفع به عند رمشة العين الأولى من السرير إلى الهواء الطلق. كان ذلك بداية سبتمبر، وهناك حيث تنفذ أشعة الشمس عبر قبة الغيوم، استطاع أن يرى لمعان سيارات الذاهبين إلى أشغالهم وبريقها، هؤلاء الذين لسبب ما لم يعثروا على رزقهم في السياحة ولهذا كانوا كلّ صباح ينتظمون في الشارع كي يصلوا في الوقت المناسب إلى أماكن عملهم على الجانب الآخر من الوادي. أَعجَبَتْ إيجر سلسلةُ السيارات الملوَّنة تلك، التي تظلّ تتلوى زاحفة فوق الطريق القصير حتى تفقد ملامحها أخيراً في الضوء السديمي، وتختفي. في الوقت ذاته أحزنته رؤيتها. فكر أنه باستثناء ذهابه إلى منشآت التلفريك والكرسي المعلق العائدة لشركة «بيترمان وأبناؤه» في الجوار، فإنه لم يغادر المنطقة إلا مرة واحدة، تحديداً كي يذهب إلى الحرب. فكّر كيف عبر في زمن مضى هذا الشارع الذي لم يكن في ذلك الوقت أكثر من طريق زراعي تتخلله تشقّقات عميقة، قادماً لأول مرة إلى الوادي فوق مقعد الحوذي لعربة حصان. وفي تلك اللحظة غمره حنين عميق وجارف لدرجة اعتقد معها أنّ قلبه سيذوب. من دون حتى أن يلتفت حوله انطلق راكضاً. بأسرع ما استطاع. نزل إلى القرية وهو يعرج، ويتعثر في طريقه، ويجري، حتى موقف الباص الواقع مباشرة قرب فندق البريد ذي

البناء العالي، حيث كانت الحافلة الصفراء التي تعمل على الخط رقم 5، المسمّى خط الوديان السبعة، تنتظر مستعدّة للإقلاع وقد أدير محركها. «إلى أين؟» سأل السائق من دون أن يرفع نظره. كان إيجر يعرف الرجل، فقد عمل لبضع سنوات فنيّاً لتركيب أربطة الزلّاجات في مشغل الزلاجات العائد لورشة الحدادة السابقة، قبل أن يشوّه التهاب المفاصل مفاصلَه، ويتوظّف لدى شركة الحافلات. كانت عجلة القيادة في يديه تبدو كأنها إطار رفيع للعبة.

قال إيجر: «حتى المحطة الأخيرة! أبعد من ذلك غير ممكن».

اشترى تذكرة ركوب، وجلس في مقعد فارغ في الصفوف الأخيرة وسط القرويين المتعَبين، الذين كان يعرف بعضهم بالشكل، والذين كانوا إمّا لا يملكون ثمن سيارة خاصة أو كانوا قد أصبحوا أكبر سنّاً من أن يستوعبوا التكنولوجيا والسرعة. دقّ قلبه بجنون عندما انغلقت الأبواب وأقلعت الحافلة. ترك جسده يغرق في مقعده وأغمض عينيه. بقي هكذا لبعض الوقت، وعندما انتصب في جلسته وفتح عينيه كانت القرية قد اختفت، وأخذ يشاهد الأشياء على حافة الطريق وهي تمضي: بنسيونات صغيرة شقّت الأرض وخرجت من الحقول، استراحات للمسافرين، لافتات محطاتِ الوقود، لوحات إعلانية، فندق تتدلى بياضات الأسرّة من كل نافذة من نوافذه المفتوحة، امرأة عند السياج تسند يدها على خصرها، وجهها غير واضح وغارق في دخان السجائر. حاول إيجر أن يفكر، لكن فيض الصور جعله متعَباً.

قبل أن يغفو بقليل، حاول أن يستحضر مجدداً الحنين الذي دفع به خارج الوادي. لكنْ لم يكن قد بقي منه شيء. للحظة اعتقد أنه يشعر ببقية ألم خفيف عند القلب، لكن ذلك كان وهماً، وعندما استيقظ ثانية، لم يكن باستطاعته أن يتذكّر، ما الذي يريد، ولماذا يجلس أساساً في هذه الحافلة.

ترجّل عند المحطة الأخيرة. مشى بضع خطوات فوق أرضية خرسانية نما فوقها العشب، ثم بقي واقفاً. لم يعرف في أي اتجاه عليه أن يذهب. الساحة التي كان يقف فوقها، المقاعد، بناء المحطة المنخفض، البيوت خلفه، لم تكن تقول له أي شيء. قام بخطوة أخرى متردّدة، ثم وقف مجدّداً. اقشعرّ من البرد. برحيله المتهوّر كان قد نسي أن يلبس سترة. لم يخطر له أن يضع قبعة، ولم يقفل كوخه خلفه. لقد ولّى راكضاً ببساطة، وهو نادم على ذلك الآن. بعيداً في مكان ما كان يسمع لغطاً، مناداة طفل، ثم صفعة باب سيارة، وصوت المحرك وهو يعلو ثم ينخفض سريعاً في النهاية. كان إيجر يرتجف الآن بشدّة، لدرجة تمنّى معها لو أنه كان قد تشبّث بشيء ما. نظر إلى الأرض، ولم يجرؤ على الحركة. في داخله كان يرى نفسه يقف هناك، رجلاً مسنّاً، عديم الفائدة وضائعاً، وسط ساحة خالية، وشعر بالعار كما لم يشعر قبل ذلك في حياته أبداً. في تلك اللحظة أحسّ بيدٍ على كتفه، وعندما استدار ببطء، كان سائق الحافلة يقف أمامه.

«إلى أين تريد الذهاب بالضبط؟»، سأل الرجل. إيجر العجوز وقف هناك فقط، وحاول يائساً أن يعثر على إجابة.

«لا أعرف»، قال وهزّ رأسه ببطء وعدّة مرات، وأضاف: «ببساطة لا أعرف».

خلال رحلة العودة، جلس إيجر في المكان ذاته، الذي اختاره لرحلة مغادرة الوادي. السائق ساعده في الصعود إلى الحافلة، ورافقه إلى الخلف من دون أن يطلب منه أجرة الركوب أو أن يقول أساساً كلمة أخرى. رغم أن إيجر لم يغفُ هذه المرة، بدا الطريق أقصر بالنسبة له. شعر بتحسّن، هدأ قلبه، وعندما غرقت الحافلة لأول مرة في الظلال الزرقاء للجبل، كان الارتجاف قد زال أيضاً. نظر من النافذة، ولم يعرف بالضبط بماذا عليه أن يفكّر أو يشعر. فهو لم يكن قد غادر المكان منذ زمن بعيد لدرجةٍ نسي معها كيف يكون شعور العودة إلى البيت.

في محطة القرية ودّع السائق بانحناءة من رأسه. في الواقع كان يريد الذهاب إلى البيت بأسرع ما يمكن، لكنّه حين صارت البيوت الأخيرة خلف ظهره، ولم يعد يفصله عن كوخه سوى مرتفع أشبه بالدرج، تبع نزوة مفاجئة، وانحنى نحو اليسار فوق درب وعر قلّما يسير عليه أحد، يلتف حول بركة ماء لا اسم لها، بخضرة الطحالب، ويتعرّج صاعداً حتى قمّة جلوكنرشبيتسه. مضى لبعض الوقت في الطريق على طول صفٍّ أسيجةٍ من الأسلاك كان مجلس البلدية قد قام بتشييده كي يحمي القرية من الانجرافات الثلجية، ثم تخطى صدعاً ضيّقاً تمّ تأمينه بقضبان حديد دُفعت عميقاً في الصخر، وقَطَعَ في النهاية مرْجَ كارفيزن الواقع في منخفض محمي من الريح. كان العشب يلمع رطباً،

وتصاعدت من الأرض رائحة عفونة. مشى إيجر مسرعاً، كان السير هيّناً عليه، وقد نسي تعبه، وبالكاد كان يحسّ بالبرد. شعر وكأنه يترك خلفه مع كل خطوة يخطوها شيئاً من الوحدة واليأس اللذين حملهما معه هناك تحتُ في الساحة الغريبة. سمع دمه يهدر في أذنه، وأحس بالريح الباردة التي كانت تجفّف العرق عن جبينه. عندما وصل إلى أخفض نقطة من المنخفض، شاهد حركةً بالكاد يمكن ملاحظتها في الهواء؛ شيئاً أبيض صغيراً، يرقص أمام عينيه مباشرة، ثم بعد ذلك بقليل واحداً آخر. وفي اللحظة التالية كان الهواء قد امتلأ بِنُدَف غيوم صغيرة لا حصر لها، كانت تهبط متأرجحة ببطء على الأرض. اعتقد إيجر في البداية أنّها أزهارٌ حملتها الريح من مكان ما، لكنها كانت بداية سبتمبر وفي هذا الوقت لم يعد يزهر شيء منذ فترة طويلة، ولم يكن يزهر شيء أصلاً على هذا الارتفاع. وهنا أدرك أنّها تثلج. كان الثلج المتساقط يزداد كثافة، ويهبط فوق الصخور وفوق المروج الخضراء اليانعة. تابع إيجر سيره. كان ينتبه تماماً إلى خطواته كي لا ينزلق، وكلما سار بضعة أمتار كان يمسح بظهر يده ندف الثلج عن رموشه وحاجبيه. خلال ذلك استيقظت داخله ذكرى، خاطر قصير في البال، شيء يعود إلى زمن بعيد جداً، بالكاد كان أكثر من صورة مطموسة الملامح. «لم يحن الوقت بعد»، قال بصوت منخفض، وكان الشتاء يحلّ على الوادي.

حَياة كَامِلَة

رُوبرت زيتالر

تصميم الغلاف نجاح طاهر

رواية مسرودة بجمال ورقة متناهية. هي قصة عن علاقة رجل بالطبيعة في صور سوريالية حيّة، وعن تقدير العزلة، وعن غزو الحياة العصرية لعالم ينبع جماله البديع من عذريّته.. وعن اللحظات التي تهزّنا وتساهم في تشكيلنا.

رواية ملهمة، بديعة في موضوعها وفي نبرتها، تقول لنا إن الفرح والنبل يمكن أن يوجدا في حياة شاقّة قاسية تحتاج إلى الصبر والشجاعة. إنها تمزِّق القلب وتدفئه في الوقت ذاته..

(Jim Crace)

نظرة رقيقة روحانية ومؤثرة على قدرتنا كبشر على التأقلم، وتذكير لنا بأننا نستطيع العثور على السعادة في كدحنا اليومي ومتعنا البسيطة.

(Jonathan Fullmer) booklist

الأسلوب النثري في هذه الرواية يتميز بالمباشرة والتفصيل، ويساعدنا على إيجاد لحظات من الحكمة الخالصة... هذه الرواية تجعلنا نقدر حيواتنا بشكل أفضل مهما كانت توجهاتنا.

(Sunday Telegraph)

في حين يزدحم المشهد الأدبي بالروايات التي تصرخ لجذب الانتباه، فإنه مما يبعث على الأمل أن نقرأ قصة هادئة وعميقة. وربما يكون أكثر ما يلفت في هذه الرواية المتميزة طريقتها في سرد مشاهد الماضي والحاضر والمستقبل في نسيج مسبوك بحرفية عالية.

(Adam Lively) Sunday Times

روبرت زيتالر: ولد في فيينا عام 1966، روائي، وأيضا ممثل ظهر في فيلم (شباب) لـ باولو سورينتينو. يعيش حاليا في برلين.

ISBN 978-9953-582-85-6
9 789953 582856

SPOTLIGHT ON RIGHTS ©

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
تونس - بيروت - القاهرة